البحث
٧

رؤية فى التنظير البلاغى
السؤال
دراسة فى تجاوزات التركيب

إعداد

د / عيد على مهدى بلبع
مدرس قسم اللغة العربية
كلية الآداب – جامعة المنوفية

بسم الله الرحمن الرحيم

والله المستعان

لقد ظلت البلاغة العربية تتناول السؤال بوصفه أسلوباً من الأساليب العربية التى عرفت فى التصنيف البلاغى بالأساليب الإنشائية ، ووضع السؤال فى حيز من هذه الأساليب تحت اسم أسلوب الاستفهام ، وظلت هذه النظرة البلاغية إلى السؤال مجتزأ من سياقة مهيمنة على الدرس البلاغى فى تناوله للتراكيب النحوية المختلفة فيما عرف بعلم المعانى ، وأصبحت هذه النظرة الاجتزائية ـ من وجهة نظر المناهج النقدية الحديثة ـ من أخطر المآخذ على الدرس البلاغى عند العرب ، وكان من أثرها القول بإحلال الأسلوبية ـ بوصفها أداة نقدية ـ محل البلاغة ، مع أن الأسلوبية فى بعض إجراءاتها لا تتنكر لتحليل التركيب النحوى مجتزأ من سياقة ، بوصفه اختياراً بين بدائل ممكنة .

أما تناول البلاغة العربية فلا يقتصر على تركيب التحليل النحوى الواحد مجتزأ من سياقة ، إذ تتعدى إلى معالجة نمط من التراكيب النحوية ووضع الإطار النظرى له ، ولكن هذه المعالجة مع تجاوزها جاءت عاجزة على مستوى التنظير والتطبيق ، لأنها انشغلت بالتتبع الاستقرائى بحثاً عن الشاهد ، كما انشغلت بتصنيف التراكيب النحوية أفقياً عن النظرة الرأسية التى تكشف فاعليات التركيب فى النص الواحد ، وكأن الرؤية البلاغية عند العرب كانت تطمح إلى المستحيل فى محاولتها حصر دلالات التراكيب بالتقنين ، ولا شك أن هذه النظرة تأثرت بالقاعدة النحوية التى تحد الظاهرة بحيث لا تستطيع منها فكاكاً .

بين هاتين النظرتين تقف محاولتنا هذه التى تطمح إلى الوقوف على فاعليات التركيب النحوى (السؤال) فى النص وتناغمه مع غيره من التراكيب فى النسيج اللغوى للنص ، وهى محاولة لمناقشة الأصول النظرية ، أكثر من كونها محاولة للتطبيق ، فهى تعمد إلى إرساء ما يمكن أن نطلق عليه (بلاغة النص) التى تتجاوز بلاغة الجملة .

وقد سلكنا فى هذه الدراسة سبيلين : يقوم الأول على تحليل رؤية البلاغة العربية للسؤال ، والوقوف على تجاوزاته ـ فى وجوده الفعلى فى النصوص ـ لقيد القاعدة .

ويقوم الثانى على رؤية السؤال فى ضوء المقولات النقدية الحديثة ، ومبادئ الأسلوبية التى تكشف عن فاعليات السؤال ـ فى ذاته ـ فى بحثها عن إمكانات التركيب ، ثم اتبعنا ذلك بنموذج لتحليل نص يتخذ السؤال فيه سمة الظاهرة الأسلوبية السائدة .

يتفاوت الوجود الفعلى للتراكيب النحوية فى سياقات الاستعمال الفنى ، كما يتفاوت ذلك الوجود على المستوى التقنين فى التنظير البلاغى ، فبينما نجد بعض هذه التراكيب محدودة الدلالات ،

تستكين للقواعد التى جاءت بشأنها فى تصنيفات البلاغيين ، لاتخرج عن هذه القواعد ــ إن خرجت ــ إلا فى أضيق حدود ، نجد بعضاً آخر نافراً من هذه التحديدات المنطقية ضارباً حدود التقنين الذى فرضه البلاغيون فى مقولاتهم وشواهدهم ، وماهذا النفور إلا نوع من التجاوز ، وقد تتسع مسافة التجاوز بين الوجود الفعلى للتركيب النحوى فى سياقاته والوجود النظرى فى معالجات البلاغيين إلى حد يبلغ معه التباعد درجة كبيرة من انقطاع الصلة بين الوجودين ، فلا تكاد تتلمس الصلة بينهما ، وكأن المقولات البلاغية تنظر لشئ غير هذا التركيب التى قطعت ـ فى تجاوزها للمنطلقات النظرية ـ مساحة واسعة ، فإذا ذهبت تلتمس فى مقولات البلاغيين النظرية مايعينك على استكشاف التركيب فى وجوده الفعلى فى النصوص وجدت عشرات التساؤلات تقف حيالها تلك المقولات البلاغية صامتة واجمة ، وإذا بالبلاغة ــ بوصفها أداة نقدية ـ لاتضع بين يدى الناقد مايعينه على تحليل النص ، إذ لايجد بين يديه سوى مجموعة من القواعد والقوانين يدل وجودها والاصرار عليها والإلحاح فى تكرارها على كونها هدفاً فى ذاتها ــ وما محاولة عبد القاهر الجرجانى الثرية فى معالجة معانى التراكيب النحوية إلا خطوة ـ على اتساعها ــ مهد بها طريق الخروج من أسر المقولات المنطقية التقعيدية فى معالجة التراكيب النحوية فى وجودها النابض فى اللغة الفنية ، ولست أنكر فضل عبد القاهر فى التفاته ولفته إلى هذا ، ولكن ثم قصور ـ فى معالجة التركيبة التى نحن بصددها ـ ربما لايكون عبد القاهر هو المسئول الوحد عنه ، فجهود العالم ماهى إلا خطوة على طريق تنامى العلم ولبنة فى بنيته ، وقد جاء القصور هنا بمثابة انتكاس ، لأن من تلوا عبد القاهر من البلاغيين لم يتجاوزوه فى هذا الهدف ، بل وقفوا عند مانثره نثراً محاولين نظمه فى مجموعة من القواعد والقوانين التى تعود بالبلاغة إلى ما حاول عبد القاهر تجاوزه فى نظرته إلى التراكيب النحوية ، الأمر الذى حدا بالبلاغة نحو الثبات والعقم على يد هؤلاء البلاغيين الذين داروا فى فلك التكرار وتقوقعوا فى دائرة ضيقة من القواعد والقوانين الجامدة .

ولايعنى ذلك أن عبد القاهر بمعزل عن المسئولية عن القصور فى معالجة هذا التركيب ، فإنه – أمامها – وقف – بصورة واضحة – عند حدود القواعد النحوية المنطقية باستثناء بعض ملاحظاته القيمة المتعلقة بالتقديم والتأخير فى حديثه عن " هل والهمزة " بالإضافة إلى الملاحظات المتناثرة عن بعض جماليات التركيب وإحكامه .

والتركيب الذى بين أيدينا أحد أوضح الشواهد على ماذهبنا إليه فى هذا التقديم ، وهو ما أسماه البلاغيون " أسلوب الاستفهام " وكونه كذلك ــ أسلوب استفهام – يمثل – فى الوقت نفسه – الدافع وراء هذه المحاولة فى الكشف عن تجاوزات التركيب فى وجوده بشقيه الفعلى فى النص ، والنظرى فى مقولات البلاغيين وقواعدهم ، ولنبدأ بالحديث عن المصطلح .

* * *

المصطلح ، المفهوم والتجاوز :

اتفق البلاغيون فى إطلاق مصطلح " الاستفهام " على تركيب السؤال بوجه عام ، ويبدو أن معالجات النحويين قد مهدت للبلاغيين هذا التحديد ، فالسؤال عند النحوى – الذى لايبحث وراء الدلالات بحثه فى مسائل الإعراب وصحة التراكيب – كله استفهام ، ومن هنا جعل سيبويه وغيره من النحويين الخبر مقابل الاستفهام [1] كما تناولوا الاستفهام بوصفه مبحثاً نحوياً وعرضوا لأدواته [2] ، وقد استعمل البلاغيون المصطلح نفسه للدلالة على السؤال بشكل مطلق ، وتداخل مصطلح آخر مع مصطلح الاستفهام هو " الاستخبار" فى المفهوم نفسه .

الاستفهام من الفهم وهو معرفة الشئ ، " واستفهمه : سأله أن يفهمه ، وقد استفهمنى الشئ فأفهمته وفهمته تفهيماً "[3] وكما أن الاستفهام فى دلالته اللغوية عُرف بالسؤال ، فإن الاستخبار أيضا التصق بدلالة السؤال ، فالاستخبار من استخبر " واستخبره : سأله عن الخبر وطلب أن يخبره ، ويقال : تخبرت الخبر واستخبرته ، وتخبرت الجواب واستخبرته ، والاستخبار والتخبر : السؤال عن الخبر ، واستخبر إذا سأل عن الأخبار ليعرفها " [4] وليس ثم فرق كبير بين الاستفهام والاستخبار فى دلالتهما المعجمية (اللغوية العامة) ولاتكاد الدلالة الاصطلاحية تختلف عن ذلك كثيراً ، قال ابن فارس " الاستخبار : طلب خبر ماليس عند المستخبر ، وهو الاستفهام "[5] ولعل ثعلب فى كتابه " قواعد الشعر" وابن قتيبة فى كتابه " أدب الكاتب " قد استعملا كلمة " الاستخبار " جامعة بين معنيى الاستفهام والاستخبار ؛ لأنهما ذكراها فى مقابل الخبر فى تقسيمهما الكلام .[6]

وقد أشار ابن فارس إلى أن " ناساً ذكروا أن بين الاستخبار والاستفهام أدنى فرق ، قالوا : وذلك أن أولى الحالين الاستخبار ، لأنك تستخبر فتجاب بشىء ، فربما فهمته وربما لم تفهمه ، فإذا سألت ثانية فأنت مستفهم "[7] وقد استقر الأمر بصاحب " معجم المصطلحات البلاغية وتطورها " إلى توضيح المفهوم الاصطلاحى للاستفهام بقوله : " والاستفهام طلب العلم بشئ لم يكن معلوماً من قبل ، وهو الاستخبار الذى قالوا فيه : إنه طلب خبر ما ليس عندك ، وهو بمعنى الاستفهام أى طلب الفهم"[8]

وقد جمع فى هذا التعريف بين الاستخبار والاستفهام ، وحدد الدلالة الاصطلاحية بانحصارها فى الطلب ، ولاتكاد تخرج عن هذا الإطار فى تعريف الاستفهام ، ولا تكاد كتب البلاغة القديمة والحديثة – على حد سواء – ، تخرج عن هذا الإطار فى تعريف الاستفهام ، فقد جعل السكاكى الاستفهام " لطلب حصول فى الذهن " [9] وجعله القزوينى من أنواع الطلب[10] وتبعه فى ذلك أصحاب شروح التلخيص وغيرهم[11] محددين الطلب بألفاظ مخصوصة لئلا تلتبس دلالة الطلب فى الاستفهام بدلالته فى الأمر[12] ، وبذلك ينحصر الاستفهام فى دلالة الطلب أو الإنشاء الطلبى ، وبذلك – أيضاً – يتضح أن المفهوم الاصطلاحى لاينفصل عن المفهوم اللغوى المعجمى العام ، وأن البلاغيين لم يتجاوزوا هذا المفهوم المعجمى فى تحديد الدلالة الاصطلاحية .

من هنا تتضح أمامنا أولى صور التجاوز بين المفهوم الاصطلاحى الذى حدده البلاغيون والوجود الفعلى للصيغة فى النصوص ، ولايستثنى من ذلك تلك الشواهد التى ترددت فى كتب البلاغيين ، والتى تعد بدورها شاهداً على اضطراب المفاهيم والخلط ، فلم يتجاوز أحد البلاغيين تحديد المفهوم الاصطلاحى " للاستفهام " بأنه طلب الفهم ، ولم يسق أحدهم شاهداً واحداً فى نص جاء السؤال فيه ذا بعد فنى مع احتفاظه بدلالة طلب الفهم .

ومن ثم نستطيع أن نحدد أولى صور التجاوز هذه فى أن الاستفهام - بمفهوميه المعجمى والاصطلاحى - لاعلاقة له بالبلاغة ، وإنما يدخل الاستفهام - لوصح إطلاقه ، وهو لايصح - فى دائرة البلاغة عندما يتجاوز دلالة الاستفهام ، أى عندما يتجاوز كونه طلباً لفهم أو لخبر أو لعلم ، ويتعدى ذلك إلى الإنكار أو التقرير أو النفى أو التعجب ... أو ما إلى ذلك .

ففيم – إذن – الاحتفاظ بمفردة " الاستفهام " فى الدرس البلاغى ؟

إن هذه الصورة من التجاوز تدل على خصوصية هذا التركيب ، الذى ينفرد عن غيره من الأساليب أو أنواع الإنشاء بأنه لايدخل فى إطار البلاغة إلا إذا تجاوز المفاهيم والتعريفات والقوانين المحددة له بدخوله فى بناء لغوى فنى ، فإذا كان الاستفهام استفهاماً ، بما تقتضيه الكلمة بمفهومها المعجمى والاصطلاحى ، فهو استفهام حقيقى ، وإنما ينحصر ذلك فى لغة الاتصال والحوار أى فى اللغة المعيارية ، وذلك الاستفهام الحقيقى هو الذى تحمل فيه أدوات الاستفهام معانيها التى وضعت لها أولاً على حد تعبير أبى نصر الفارابى فى كتابه الحروف إذ أشار إلى أن حروف السؤال - يقصد أدوات الاستفهام جميعها ، فقد جمع فيها بين الحروف والأسماء - " لاتستعمل فى الفلسفة والجدل والسوفسطائية إلا على المعانى الأولى التى وضعت لها أولاً "[١٣] بذلك يتضح أن المعايير التى وضعها البلاغيون فى تحديدهم الاصطلاحى للاستفهام أوالاستخبار لايستخدم فى اللغة الفنية إلا فى قليل من الأحيان ، ولم يكن ماذهب إليه أبو نصر الفارابى من أن " الخطابة والشعر فإن الألفاظ – يقصد أدوات الاستفهام - تستعمل فيهما بالنوعين جميعاً – يقصد الاستفهام الحقيقى والمجازى" [١٤] من الدقة بمكان ، لأنه يشى باستواء الاستعمال الحقيقى وغير الحقيقى فى الشعر والخطابة أو تقاربهما كمّياً فى الاستعمال ، وهذا ينافى استقراء النصوص .

ويبدو أن تحديد عبد القاهر لعلم المعانى بأنه يدور حول معانى النحو جعل من النحو ومقولات النحويين مرجعية أصولية لهذا العلم ، وجعل علم المعانى ابناً شرعياً للنحو ، يتجاوزه ولكنه لاينفصل عنه ، وبخاصة فى مكوناته الأولى التنظيرية المفصلة والمصنفة ، فإنه تسلمها - مقولات النحو - أو استسلم لها دونما محاولة للنقاش ، فاشتغل باختلاف معانى أدوات الاستفهام تارة وبالتفريق بين مواضع استعمال هل والهمزة تارة ، وهذه المقولات - من حيث هى - صحيحة ، ولكن من الخطأ أن نتلقاها على أنها هى الصحيح الذى ليس وراءه صحيح ، كما أنه من الخطأ البين ألا نفرق بين ما يصح أن يقال فى النحو وما يصح فى البلاغة ، وإن خالفتنى زاعماً أن أحداً لم يقل بذلك ، فإنك لاتخالفنى فى أن أحداً لم يقل بسواه ، وهنا يبرز دال

الصمت ليحمل فى طيه رضوخاً للمنقول دونما محاولة للمحاورة والاستكشاف ولنتأمل ـ مثلاً ـ معالجة القزوينى الاستفهام فى كتابه الإيضاح فسنجد أن تلك المعالجة ، فى معظمها ـ لاعلاقة لها بالبلاغة من قريب أو بعيد ، والغريب أن بعض المحدثين يسيرون فى هذه المعالجة ملتزمين الطريقة نفسها على الرغم من اعترافهم بأنه لاعلاقة لها بالبلاغة ، فبعد أن اشار د. محمد أبو موسى إلى مواضع " الهمزة وهل " ومناقشة عبدالقاهر والسكاكي يقول : " وهذا الذى ذكرنا فى " الهمزة وهل " أشبه بالنحو منه بالبلاغة ، لأنه تحرير نظام الجملة وبيان فرط دقتها ومحظوراتها ، ومايجب ملاحظته فى بنائها حتى لاتتدافع آحادها فينتقض الكلام وذلك كله فى ضوء تحليل الدلالة وتحديدها ، البلاغيون فى هذا يتكئون على كلام النحاة ... والأدخل فى باب دراسة مزايا الأسلوب والكشف عن جوانبه ذات الظلال والإيماض هو بحث ألوان الحس ، وما يخطر فى القلب مما يثيره الاستفهام حين لايراد به طلب الفهم " [١٥]

إذا كان البلاغيون قد ساروا فى أثر النحاة فى إطلاق " الاستفهام " على السؤال بعامة فإن ذلك يؤكد التجاوز الأول الذى نحن بصدده والذى يتعلق بتحديد مفهوم المصطلح ، لأن النحويين ـ شأن البلاغيين ـ اعتمدوا فى تأصيل النظريات والقواعد النحوية على النصوص ، أى اللغة فى وجودها الفنى ، وليس بحاجة إلى إثبات وبراهين اعتمادهما كليهما على النص القرآنى والشعر والخطابة ، وإذا كان ثَم مبرر للنحاة فى عدم الالتزام باللغة الفنية فى شواهدهم ، فليس ثَم مبرر للبلاغيين أن يتبعوهم فى ذلك ، لأن النحو تحديد القاعدة التى تضبط الكلام فى سياقه الفنى وغير الفنى ، أما البلاغة فيناط بها استكناه اللغة فى وجودها الفنى ، وإذا اتخذنا الاستفهام الوارد فى القرآن مثلاً وجدناه إما أن يكون استفهاما محكياً عن الخلق أو غير محكى عن أحد من الخلق ، ونستطيع أن نحدد بصورة قاطعة أن الاستفهام غير المحكى هذا ـ على إطلاقه ـ لايصح أن يطلق عليه استفهام ، لأنه لايدخل فى دائرة التحديد الاصطلاحى الذى حدده البلاغيون ، وهذا وحده كاف لإثبات الاضطراب فى تحديد المصطلح ، أضف إلى ذلك أن الاستعمال الشعرى للسؤال فى أكثر الأحيان يخرج عن حدود ذلك المفهوم الاصطلاحى ، وإذا كان تحديد مفهوم المصطلح هو اللبنة الأولى لتأسيس العلم ، فهذا وحده دافع كاف لطرح مصطلح الاستفهام عن الحقل البلاغى ، إذ كيف تؤسس قاعدة الخروج عنها أضعاف الامتثال لها ، والالتزام بها ؟

ولامعنى للرد على ذلك بدعوى الأصل الذى وضع أولاً ؛ لأننا لا نستطيع تحديد ذلك الأصل بصورة حاسمة ، فإذا كان يعنى غالب الاستعمال ، فغالب الاستعمال الفنى لتركيب الاستفهام ليس استفهاماً بمفهومه المعجمى والاصطلاحى ، وإذا عنى الأصل أولية الاستعمال ، فإن أولية الاستعمال الفنى للاستفهام ليس من الاستفهام فى شىء ، وإذا قُصد بالأصل الاستعمال المعيارى فإن هذا الاستعمال أيضاً يتجاوز فى كثير من الأحيان ما يقتضيه مفهوم كلمة استفهام ، وسنقف على ذلك بشىء من التفصيل فى حديثنا عن الانحراف الأسلوبى .

ولأن الخروج على ما يقتضيه المفهوم الاصطلاحى للاستفهام أضعاف الامتثال له ، التفت البلاغيون إلى ذلك وراحوا يعدون دلالات التركيب التى تتجاوز طلب الفهم ، ولكن إدراك هذا التجاوز

جاء قاصراً من وجهين :-

الأول : أنه لم يفد فى التنظير بحيث يلفت إلى شكل آخر من أشكال التقنين التى لا تجعل من أقوال السابقين مسلمات لامناص من الوقوف عند حدودها التى رسمتها ، فضلاً عن أنه لم يلفت إلى شكل آخر من أشكال المعالجة يتلاءم مع تجاوزات التركيب وانفراده وهيمنته على التراكيب الأخرى ، فالتزم البلاغيون بفكر النحاة وحذا المتأخرون منهم حذو الأوائل فى هذا الالتزام بتحديد المصطلح وتحديد مفهومه .

الآخر : أن محاولتهم فى تحديد تجاوزات التركيب فى النصوص لم تكن من الدقة بحيث تأتى خلواً من الخلط والاضطراب ، فتداخلت المفاهيم ، وتضاربت الأقوال حول الشواهد ، وسارت فى منحى تحديدى صارم قعد بها عن إدراك كنه التركيب ، فراح بعضهم يعارض البعض الآخر فى أن السؤال هنا يعنى كذا أو يعنى غيره .

لقد كانت محاولات البلاغيين فى تحديد التركيب ضرباً من إرادة الإحاطة به ، وكيف بمن يأبى إلا أن يحيط بشئ لايحاط به . وكأن محاولة وضع الأصول النظرية لعلم البلاغة هى الهدف الذى استباحوا به تضييق الخناق على عنق التركيب ليظل فى أسر مقولاتهم زمناً طويلاً ، فكأن دافعهم فى ذلك يتمثل فى أن البلاغة لابد أن تكون علماً ، وأن العلم بالضرورة لابد أن يؤسس على تصنيف وتقعيد وتقنين ، ولكنهم لم يدروا من أين تبدأ قاعدة تركيب من التراكيب فى معرض الحديث عن علم البلاغة ، ولقد فاتهم أنهم يؤسسون علماً مادته الفن .

لقد ذهب أحد المحدثين فى محاولة للدفاع عن هذا القصور ، ولكنها محاولة ليس لها ما يبررها لأنه لايوافق البلاغيين على ما ذهبوا إليه فى تحديد مفهوم الاستفهام إذ يقول : " يمثل الدرك الأسفل من مستوى الفهم ما حدد البلاغيون به الاستفهام إذ قالوا : هو طلب حصول صورة الشئ فى الذهن " ، ثم يقول مدافعاً : " البلاغيون وإن اكتفوا بتعريف الدرك من الاستفهام فإنهم لم يقبعوا فى واديه ، بل كانت مسيرتهم إلى الذروة ذات خطى متقدمة وإن تكن متأنية ، حقيقة كانت إقامتهم فى هذا الدرك طويلة ، ولعلها كانت عن قصد بغية التزود واتخاذ العدة ، فأكثروا من القول فى ما لايتجاوز طلب حصول صورة الشئ فى الذهن ، على الرغم من أن ذلك ليس من بضاعتهم ، ولايفوح زهرة فى واديهم ، المهم أن حديثهم عما يتعلق بهذه الأدرك قد يكون ضرورة بالغة من قبل شد الرحال إلى مدارج الذروة ، حين يكون الحديث إلى من لم تذلل راحلته فى معارج العلم " [١٦] .

والواقع أن البلاغيين لم يتجاوزوا مفهوم الاستفهام إلى يومنا هذا ، فالبحث نفسه الذى ضم بين صفحاته كلمات الدفاع الواهية هذه لم يتجاوز الدرك ، لأنه لم يحاول مناقشة مصطلح الاستفهام فى ذاته ومدى صلاحيته للإحاطة بالوجود الفعلى للتركيب على الرغم من أن دراسته تقوم أساساً على النص القرآنى ، وعلى الرغم من إشارته هو نفسه إلى أن جُل الاستفهام القرآنى لايدخل فى دائرة مفهوم

الاستفهام ـ لغة واصطلاحاً ـ بقوله :

" إن المدلول اللغوى والاصطلاحى للاستفهام لايستقيم مع النوع الأول من الاستفهام فى القرآن الكريم (الاستفهام غير المحكى عن أحد من الخلق) لأن الله ـ عز وعلا ـ لايطلب ذلك ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً ، ومن ثم فكل استفهام غير محكى فى القرآن ينبغى أن يؤول إلى ما يتلاءم مع كمال الله عز وعلا " [١٧] .

ولنا أن نكرر التساؤل : إذا كان هذا النوع من الاستفهام القرآنى لايتلاءم مع مفهوم الاستفهام ففيم الإصرار على المصطلح ؟ لكأن المصطلح الذى وضعه البلاغيون أكثر قدسية من النص القرآنى عند القائل ، فإذا كان ثم تعارض بين النص وما وضعه البلاغيون فينبغى أن يؤوَّل النص لا أن يشك فى فكر البلاغيين !! إن هذه القدسية التى أحيط بها مصطلح " الاستفهام " دفعت إلى محاولات تأويلية تبريرية ، ولكن هذه المحاولات نفسها شاهد على تجاوز التركيب لحدود المفاهيم التى وضعت له ، وما تلك المحاولات سوى نوع من كبت التجاوزات لترضخ هذه المفاهيم بشكل أو بآخر ، وكأن المصطلح الموضوع من الجلال بحيث لاتسنح فرصة للمساس به .

فمن ذلك محاولة بهاء الدين السبكى فى كتابه " عروس الأفراح " التى راح بعض المحدثين فى أثرها يقولون بتقييد الذهن " فى ذهن السائل " أو بإطلاقه بحيث يشمل ذهن غيره ، وتتحدد محاولة السبكى التبريرية فى كون " الاستفهام طلب الفهم ، ولكن فهم المستفهم ، أو طلب وقوع فهم لمن لم يفهم كائناً من كان ، فإذا قال من يعلم قيام (زيد) لعمرو بحضور (بكر) الذى لا يعلم قيامه : هل قام زيد ؟ فقد طلب من المخاطب الفهم أعنى فهم (بكر) ، إذا تقرر هذا ، فلا بدع فى صدور الاستفهام ممن يعلم المستفهم عنه ، وإذا علمت ذلك انزاحت عنك شكوك كثيرة وظهر لك أن الاستفهامات الواردة فى القرآن لامانع أن يكون طلب الفهم فيها مصروفاً إلى غير المستفهم والمستفهم عنه ، فلا حاجة إلى تعسفات كثيرة من المفسرين" [١٨] .

يتضح من ذلك أن هدف المحاولة ينحصر فى الإبقاء على مصطلح الاستفهام ومفهومه الذى حدده البلاغيون ، ذلك الهدف الذى ظل يقود مقولات العديد من المحدثين ، فتلقف أحدهم تبرير السبكى هذا بقوله : " ماذهب إليه البهاء أقرب إلى الفقه البيانى القائم على شىء من الحس اللغوى المرهف ، والاستشفاف الذوقى لواقع الكلمة المبينة الكاشفة ." [١٩]

وما تلك سوى محاولات واهيه تشهد بتقوقع الفكر البلاغى فى دائرة ضيقة تقدس المعرفة النقلية وتقيم حولها سياجاً كثيفاً من الجمود ، كما تشهد فى الوقت ذاته بتجاوز التركيب وتأبيه على التحديد .

ثمة محاولة أخرى لتبرير ذلك ذهب فيها أصحابها إلى القول بأن خروج الاستفهام عن حدود المفهوم الاصطلاحى واللغوى للمصطلح نوع من المجاز ، ومن هؤلاء سعد الدين التفتازانى ، ولكنه لا يلبث أن يشهد بتجاوز التركيب معترفاً بقصور البلاغة العربية والبلاغيين عن الخوض فى ذلك ، واقفاً بدوره

دونما محاولة تذكر لتناول النصوص فى ضوء ماذهب إليه ، يشهد بذلك قوله : " تحقيق كيفية هذا المجاز وبيان أنه من أى نوع من أنواعه مما لم يحم أحد حوله " [٢٠]

وقد أشار د. محمود توفيق فى دراسته التى أسلفنا الإشارة إليها إلى أن ماذهب إليه " السيد الشريف " فى حاشيته على المطول للتفتازانى فى محاولة تحقيق كيفية مجازية الاستفهام وبيان نوعه بأنها " محاولة مكشوف عوارها " [٢١] ، وقد التفت د. محمد أبو موسى إلى أن " الاستفهام قد يفيد معانى متعددة كالتقريع والتوبيخ والتعجب فى نص واحد ، فإذا ادعينا أن الأداة مجاز فى إحدى هذه المعانى ، فما موقفنا من غيرها ؟ وهل يمكن أن نقول إنها تنقل من معناها الأصلى إلى المعانى مجتمعة ؟ ، الواقع أن اللفظ فى المجاز ينقل من معناه إلى معنى آخر لا إلى جملة معان " [٢٢] ويقول فى موضع آخر : " وليس من المحقق عندنا أن نطلق على هذه الصور هذه التسمية الشائعة (المعانى المجازية) لأننا لم نطمئن إلى أن هذه المعانى مجاز لبقاء الاستفهام قوياً وراء كل معنى من هذه المعانى ، حتى أن مزية أداء هذه المعانى بطريقه الاستفهام على أدائها بطرقها المعهوده لايرجع إلا إلى بقاء معنى الاستفهام فى هذه الأدوات " [٢٣].

هذه المقولات وغيرها للبلاغيين قدماء ومحدثين تؤكد ـ فى وضوح ـ تجاوز هذه التراكيب لمفهومها الاصطلاحى فى وجودها الفعلى ، بيد أنهم وقفوا جميعاً فى محاولات التبرير هذه عند حدود التركيب فى وجوده الفعلى ، ولم يحاول أحدهم الاقتراب من خلل المصطلح واضطرابه وقصوره عن الإحاطة بما يقتضيه المفهوم فى معالجة الظواهر ، فعلى الرغم من ذهاب د. محمد أبو موسى إلى ماذهب إليه يستهل حديثه عن الاستفهام بقوله :

" الهمزة والسين والتاء تفيد معنى الطلب فى هذه الكلمة ، والمطلوب هو الفهم ، والفهم يعنى حصول صورة المراد فهمه فى النفس وإقامة هيئته فى العقل ، وهذا هو الذى قاله البلاغيون ـ وكأنه يشكك فى القول ويلقى تبعته عن نفسه ـ فى تعريف الاستفهام ، فهو : طلب حصول صورة الشئ فى الذهن".[٢٤] مع أنه من وراء ستار ، فى تلميح أشبه بالتصريح ، يرى أن الاستفهام لايدخل فى البلاغة إلا حيث لا يراد به طلب الفهم [٢٥] .

وبذلك تتحدد أولى صور التجاوز بأن مصطلح الاستفهام لايفى بحاجة الدرس البلاغى ، فوجوده يأخذ فى التقلص بدلالتية المعجمية والاصطلاحية ، وبذلك أيضاً يتضح لنا أن البلاغيين ـ قدماء ومحدثين ـ ساروا على خطى بعضهم البعض ، ومن تنبه منهم إلى تجاوز التركيب فى وجوده الفعلى فى النصوص الفنية لوجوده النظرى فى كتب البلاغيين وقف دون محاولة لإعادة الوعى بأدواتنا وظل يدور فى فلك التأويل والتبرير الذى لاطائل من ورائه .

إن هذا المظهر من مظاهر التجاوز لم يقف عند هذه الحدود بل تخطى ذلك فتبعته مظاهر أخرى للخلط والاضطراب فى المفاهيم النقدية والبلاغية .

* * *

مظاهر اضطراب المصطلح :ـ

لقد تأسست على مفهوم الاستفهام مقولات أخرى تشهد بالخلط والاضطراب فى المفاهيم ، كما تثبت مظاهر أخرى لتجاوزات التركيب ، ففى محاولة سلكت سبيلاً نحو التقعيد للشعر العربى أشار أبو العباس ثعلب فى كتابه " قواعد الشعر " إلى تقسيم قواعد الشعر إلى أربع " أمر ونهى وخبر واستخبار "(٢٦) ... وببعض التأمل تقف على التجاوز فى هذه المقولة النظرية ، كما تقف عليه أيضاً فى محاولات " ثعلب " التطبيقية ، لنخرج من ذلك إلى الوقوف على مظهر آخر من مظاهر التجاوز فى خصوصية التركيب وتفرده .

لقد جعل ثعلب الاستخبار مقابل الخبر ، وسواء قصد الاستخبار بمعنى الاستفهام أو فرق بينهما فالتركيب تجاوز هذا التحديد التصنيفى الذى وضعه فى صدر كتابه لتهيمن على سائر القواعد الأخرى فتجد الاستخبار ـ على حد تعبيره ـ يجمع بين دلالة الخبر والنهى والأمر ، ففى بعض استعمالاته يدخل على الخبر ، ويستعمل أحياناً للأمر أو للنهى ، وإنما تعد هذه إحدى خصوصيات التركيب وتجاوزاته ، لأنه يتجاوز الحدود التى رسمها المفهوم اللغوى والاصطلاحى ، والتحديد الذى يجعلها إحدى التراكيب الإنشائية الطلبية لتهيمن على سائر التراكيب من خبر وإنشاء ، وربما لايستثنى من ذلك سوى أسلوب النداء ، وحرى بالإشارة أيضاً أن إحدى هذه التراكيب ـ خبرية أو إنشائية .

يشهد ذلك بتجاوز التركيب لحدوده ، ومن ثم كان تطبيق ثعلب مؤكداً لهذا التجاوز ، لأنه ـ من ناحية ـ جعل الاستخبار أحد أربع قواعد ينتظم الشعر فى سلكها ، فإذا تأملت الشواهد الواردة فى كتابه وجدت عشرات الأبيات الدالة على الخبر وكذلك الحال مع النهى والأمر ، ولكننا لانجد سوى ثلاثة أبيات فقط جاءت فى شكل استخبار ـ على حد تعبيره ـ ولكنها ـ من ناحية أخرى ـ تتجاوز دلالة الاستخبار والاستفهام معاً ، ولايستثنى من ذلك البيت الذى أورده شاهداً على الاستخبار ، فبعد أن عرض لشواهد الأمر والنهى والخبر عرج بقوله " : .... والاستخبار ، كقول قِيس بن الخطيم :ـ

أنى سربت وكنتِ غيرَ سروب ... وتُقَرِّبُ الأحلام غير قريب
ما تمنعى يَقْظَى فقد تؤتينه ... فى النوم غير مصرد محسوب(٢٧)

ثم استشهد ببيتى النابغة الذبيانى فى الاعتذار :

أتوعُد عبداً لم يخُنك أمانة ... وتتركُ عبداً ظالماً وهو ظالع
حملت علىَّ ذنبَه وتركتَه ... كذى العُرِ يُكوى غيُره وهو راتع(٢٨)

والاستخبار الثالث قول الشاعر فى التشبيب :

ألم تريانى كلما جئت طارقاً ... وجدت بها طيباً وإن لم تطيب (٢٩)

وليس من بين هذه الشواهد الثلاثة مايدل على استخبار حقيقى ، فدلالة السؤال الأول تنصرف إلى إظهار اللهفة والحيرة ، إذ الاستخبار الحقيقى يتطلب سائلاً ومسئولاً ، مستخبراً ومستخبراً منه ، المتسخبر منه هنا هو ذاته المستخبر عنه وبذلك تنتفى دلالة الاستخبار ، وتجمع دلالة السؤال الثانى بين الاستنكار والعتاب واللوم والاستعطاف فى الوقت الذى تنتفى فيه دلالة الاستخبار من السؤال ، أما السؤال الثالث فدلالة التقرير فيه واضحة ظاهرة وبذلك ينصرف إلى الخبر لا الاستخبار .

* * *

الاستفهام بين الخبر والإنشاء :

إن الانحصار فى تعريف الاستفهام بأنه طلب الفهم أدى إلى انحصار فى دلالة الطلب ـ كما أوضحنا من قبل ـ تلك الدلالة التى كان لها أكبر الأثر فى تصنيف الاستفهام وحصره فى أنه نوع من أنواع الأساليب الإنشائية وفق التقسيم البلاغى للكلام بأنه " خبر وإنشاء " وقد أوضحنا أيضاً أثر المقولات النحوية فى ذلك ، إذ وضع النحاة الاستفهام مقابل الخبر ، وقد وجد هذا التقسيم طريقه إلى الدراسات الأدبية ، وقد أشرنا إلى شئ من ذلك ، إذ جعل ثعلب الخبر مقابل الاستخبار فى كتابه (قواعد الشعر) ، ابن قتيبة فى كتابه " أدب الكاتب " ، استقر الحال ـ إذن ـ بالدراسات البلاغية على تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء ، وجعلوا الاستفهام من أنواع الإنشاء الطلبى ، وقد سبق الحديث عن الطلبية فى الاستفهام فى معرض الحديث عن تجاوز المصطلح ، لأن الطلب يتعلق بمفهوم المصطلح الذى تناقلته كتب البلاغة قديما وحديثاً ، وهنا نعرض لبعض تجاوزات التركيب فى استعصائه على التصنيف بين الخبر والإنشاء .

لقد تنوع الوجود الفعلى للتركيب فى النصوص بين الإنشائية والخبرية ، الأمر الذى لايمكن القطع معه بأنه محض خبر أو محض إنشاء ، ولم يكن البلاغيون من الغفلة بحيث لايقفون على ذلك ، ولكنهم عدوا خبرية التركيب خروجاً عن الأصل الذى وضع له أولاً فاستعملت للتقرير أو الإنكار أو غير ذلك من أنواع خبرية التركيب .

وقد فرق الزركشى فى كتابه " البرهان فى علوم القرآن " بين الاستفهام بمعنى الخبر والاستفهام بمعنى الإنشاء ، ولكن هذا التفريق لم يكن من الدقة بحيث يقطع بتحديد أصول إنشائية الاستفهام أو خبريته ، فوقفت محاولته مكتوفة أمام النصوص ، يكتنفها كثير من الخلط والاضطراب ، لأنه اعتمد على المعرفة النقلية ولم يحاول استكشاف الدلالة فى سياقها ، فأطلق الكلام مرسلاً ظنياً فى بعض الأحيان .

لقد وضع الزركشى السؤال " أتجعل فيها من يفسد فيها " [٣٠] فى الاستفهام الخبرى وجعل الخبر يعنى هنا " الاسترشاد " معلقاً بقوله " ... والظاهر أنهم استفهموا مسترشدين ، وإنما فُرّق بين العبارتين أدباً ، وقيل : هى للتعجب " [٣١] ثم عاد ووضع السؤال نفسه فى الاستفهام الإنشائى وجعله بمعنى الدعاء ، ثم علق بقوله : " وهم لم يستفهموا ، لأن الله قال : " إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة " وقيل

: المعنى إنك ستجعل ، وشبهه أبو عبيدة بقول الرجل لغلامه وهو يضربه : ألست الفاعل كذا ، وقيل بل هو تعجب ، وضُعّف ، وقال النحاس : الأولى ما قاله ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما ، ولا مخالف لهما : إن الله تعالى لما قال : (إني جاعلٌ في الأرض خليفة) قالوا : وما ذاك الخليفة ، يكون له ذرية يفسدون ، ويقتل بعضهم بعضاً ، وقيل : المعنى : أتجعلهم فيها أم تجعلنا ، وقيل : المعنى : تجعلهم وحالنا هذه أم يتغير ."[٣٢]

إن القطع ببطلان اكثر هذه الأقوال أظهر من أن يحتاج إلى أن نقيم عليه دليلاً ، إنهم يتعجبون تعجب المستنكر لمظهر التناقض أو يستنكرون استنكار المندهش المتعجب غير العارف المعترض غير الموافق، إنهم يتعجبون تعجب المستنكر لعلمهم بأن المتحدث المخبر بقوله : " إني جاعلٌ في الأرض خليفة " لايريد فساداً ، ولعلمهم بأن المُتحَدث عنه لابد واقع منه الإفساد وسفك الدماء ، تعجب الواقف على تناقض ما بين وقوع الجعل من الله " إني جاعلٌ " ، وأن المجعول هذا سيفسد في الأرض ويسفك الدماء ، أما كون هذا التناقض الذى ساقهم إلى السؤال لحكمة تخفى عليهم فهذا مالا يعلمونه ، وهذا ـ فى الوقت ذاته ـ الذى بينه التعقيب " قال إني اعلم مالاتعلمون " ، فالتعقيب يقطع بأن هناك حكمة خافية تتضمن علماً لما لا يعلم السائل ، ومن ثم يبطل الإنكار على السائل أن يتعجب لأن الذى حدا به إلى هذا التعجب هو عدم المعرفة مع وقوفه على تناقض ظاهر ، ولا معنى لأن يضعف الزركشى القول بالتعجب أو ينقل تضعيف القول به ، ولا تنفصل دلالة الاسترشاد ـ مع ذلك ـ عن دلالات التعجب والإستنكار والدهشة ؛ لأن مرجع الدلالات كلها إلى عدم المعرفة .

أما قول ابن عباس وابن مسعود فلا علاقة له بالبعد البلاغى ، إذ ينصرف إلى التفسير مع أنه أصوب ما نقله الزركشى ، لأن قوليهما ينصرف إلى الاستفهام عن الإفساد والقتل ، الأمر الذى أغفله البلاغيون فانحصرت أقوالهم فى " الجعل " من حيث هو ، لا فى الصفة المنسوبة للمجعول ، مع أن هذه الصفة هى جوهر السؤال وهذا الإغفال وحده يقطع بفساد آراء البلاغيين حول هذا السؤال ومحاولات تصنيفه .

فالمسئول عنه هنا هو المعرف بمن الموصولة ، وبالتالى فإن السؤال يتحدد حول مستبعات جملة الصلة ، ليس سؤالاً عن الخليفة فى ذاته ولا عن جعله ، وإنما السؤال لأن هذا الخليفة سيفسد فى الأرض ويسفك الدماء ، فهو تعجب لايخلوا من استنكار ، واستنكار لايخلو من استرشاد وذلك كله ينطق بدهشة عدم المعرفة التى دفعت لهذا السؤال .

تجد ذلك واضحاً فى موضع آخر ينطلق السؤال فيه من دهشة عدم المعرفة أيضاً ، فموسى ـ عليه السلام ـ لم يقف على المبررات الباطنة لفعل العبد الصالح ، لهذا جاء سؤاله عن خرق السفينة " أخرقتها لتغرق أهلها ؟ " دهشة لعدم المعرفة ، واستنكاراً يؤكده تعقيبه بقوله : " لقد جئت شيئاً إمرا " كما جاء سؤاله عن قتل الغلام : " أقتلت نفساً زكية بغير نفس ؟ " دهشة واستنكاراً صرح بهما

موسى عليه السلام في التعقيب أيضاً : " لقد جئت شيئاً نكراً " ، وسياق الحوار قبل هذه الأسئلة يؤكد على وقوع الاستنكار ، في هذه التحذيرات التي توجه بها العبد الصالح إلى موسى - عليه السلام - إذ أكد له : " إنك لن تستطيع معى صبرا " والتمس له العذر لعدم المعرفة " وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً ؟ " ، مستخدماً السؤال في تحديد العذر لعدم الصبر بعدم توفر المعرفة ، مؤكداً أن الجهل بالموقف لابد أن يدفع حتماً إلى السؤال ، وأمام إصرار موسى عليه السلام . يشترط عليه مخاطبه عدم السؤال " فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شيء حتى أُحدث لك منه ذكرا " لتوقعه أن السؤال واقع لامحالة ، لأن عدم المعرفة واقع ، ولأن الدهشة أيضاً واقعة لامحالة ، وهى محاولة من المتحدث لبث الاطمئنان فى نفس المتلقى ؛ لأن الإجابة ستحدث ولكن لا تسأل حتى أخبرك .[٣٣]

لقد مهد النحاة - دون أن يقصدوا إلى ذلك قصداً - للبلاغيين سبيلاً للتمييز بين الاستعمالات المتباينة لأدوات السؤال بحديثهم عن " كم " بتفريقهم بين استعمالها خبرية فى بعض المواضع واستفهامية فى بعضها الأخر ، وجعلوا هذا التمييز مطلقاً وصارماً ، إلا أن النحاة لايعنيهم من ذلك التفريق سوى الإعراب والمعنى القريب ولايعنيهم معنى المعنى أو ماوراء المعنى ، ولكنه - مع ذلك - يشير إلى إمكان التفريق والتمييز بين استعمالات هذه الأدوات وقد كان ينتظر من البلاغيين - وهم الذين تجاوزوا البحث وراء الإعراب إلى تحليل دلالات التراكيب وإلى الغوص فى السياق للوقوف على معنى المعنى - أن يسلكوا هذه السبيل فيميزوا بين الاستعمالات المتباينة معللين لهذا التباين ، إذ لوفعلوا لكان أجدى للدرس البلاغى على مستوى التنظير والتطبيق .

ولكنهم ساروا فى أثر النحاة - فى أكثر الأحيان - فى اللبنات الأولى التى تمثل قاعدة العلم الذى يؤسسون له ، ووقفوا عند حدود مقولاتهم فى الاتفاق والاختلاف ، فاتفقوا على ما اتفق عليه النحاة ، واختلفوا أو سجلوا اختلاف النحاة دونما تعليق يذكر .

لقد تناقلت كتب البلاغة - قديمها وحديثها - السؤال : " قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين "[٣٤] شاهداً على أن (كم) هنا استفهامية وأنها للسؤال عن العدد ، دونما نظر إلى المخاطِب والمخاطَب والسياق وملابسات السياق . وبأدنى نظر إلى الحوار الدائر بعد السؤال تقف على أن السائل هنا هو الذى ألبثهم وهو يعلم وهم لا يعلمون كم لبثوا ، وهم أجابوا وهو نقض إجابتهم " قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين ، قال إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون "[٣٥] إن السؤال هنا حقيقى لأنه يطلب له جواب ، ولكنه لايمكن أن يكون استفهاماً - بالمفهوم المعجمى والاصطلاحى - لأن السائل يعلم الإجابة ولكنه يستنطقهم بها ، أما البلاغيون فأبوا إلا أن يقفوا عند حدود القاعدة والشاهد شأن النحاة ، ولذلك لم يتجاوز تعليقهم على بيت الفرزدق :

كـمْ عمـة لك ياجريرُ وخالـة فَدْعَاء قد حلبتْ عليَّ عشارى

البعد النحوى فى استعمال (كم) وإعراب ما بعدها ، فوضع السكاكى البيت شاهداً على (كم الاستفهامية) واحترز من جواز استعمالها خبرية هنا بقوله " فيمن روى بنصب المميز " [٣٦] ، وكأنه بهذا الاحتراز يخرجها من دائرة الدرس البلاغى حال خبريتها ، مع أن عكس ذلك ـ غالبا ـ هو الصحيح ، ولم يشر أحد البلاغيين قديماً وحديثاً إلى كم الخبرية على الإطلاق مع أن ما ينطبق على كم من حيث الاستفهام والخبر هو نفسه ما ينطبق على غيرها من الأدوات من وجهين ، الأول : أن (كم الخبرية) تستعمل للدلالة على التقرير ـ مثلاً ـ كما تستعمل غيرها من أدوات السؤال ، فهذا المنطق كان يستدعى أن يجرى قانون التمييز بين خبرية الأداة واستفهاميتها على سائر الأدوات ، لينحى البلاغيون (الهمزة الخبرية) و(هل الخبرية) و (ومَنْ الخبرية) .. وما إلى ذلك عن الدرس البلاغى ، والوجه الآخر : أن يجرى على (كم) القول بالخروج على الأصل الذى وضع أولاً ، فتصبح (كم الخبرية) استفهامية خرجت عن أصل الاستعمال للدلالة على التقرير وغيره ، أو يصبح استعمالها خبرية للتقرير وغيره من قبيل المجاز أو من مستتبعات التركيب ، على حد قول بعضهم [٣٧] ، والواقع أن كم لا تختلف عن غيرها فى الاستعمال الفنى ، كما سنبين بعد قليل .

إن الأسس والأصول التى ينطلق منها النحاة محددة ، وهدف العلم كذلك واضح معلوم ، وذلك هو الأمر الذى افتقده الدرس البلاغى زمناً طويلاً وأعلامه الذين أبوا إلا الوقوف عند حدود المعرفة النقلية وعقولات الأوائل فلا يتجاوزونها إلا بالقدر الذى سمحت به مقولات هؤلاء الأوائل على وجل واستحياء ، إن المتأمل فى هذا الملحظ وحده يقف على مدى تبعية البلاغة للنحو وانفصامها عن شخصية العلم وخصوصيته وأدواته وإجراءاته مما يدفع دفعاً إلى ضرورة إعادة النظر فى البلاغة ـ بوصفها أداة نقدية ـ تلك التى تشكل إعادة الوعى بأدواتنا النقدية ، ولا أحسبُ أن ذلك سيكون إلا بجهود نقدية ؛ فالبلاغة إحدى أدوات النقد العديدة ، فإذا عجزت الأداة كان الذى يستعملها أدرى الناس بعجزها وهو بالتالى أدرى الناس بعلل هذا العجز وكيفية التغلب عليها ، وقد بات واضحاً أن الخلل فى البلاغة يتغور فى الأصول الفكرية لمكونات المقولات النظرية ، على مستوى طرح المصطلحات وتحديد مفاهيمها ، كما ينتشر فى نهج التصنيف والتنظير ، لتظهر آثار ذلك فى المعالجات التطبيقية والإجراءات .

لاشك أن أمر التصنيف بين الخبر والإنشاء من الأمور التى توقع البلاغة والبلاغيين فى حرج شديد ، والغريب أن بعض المحدثين يتنبه إلى بعض مظاهر الخلل فيكتفى بمجرد الإشارة إليه أو يقترح مخرجاً يوقع فى خلل أشد ، وحسبنا النظر فى المحاولة الوريدة فى أحد كتبهم حول تصنيف الاستفهام التقريرى ـ على حد قوله ـ بين الخبر والإنشاء لنقف على مظهر من مظاهر الخلل والاضطراب بل التناقض فى هذه المعالجة ، وقد بدأ المؤلف الحديث عن الاستفهام التقريرى بتقسيمه إلى ضربين :

أحدهما : أن يكون بمعنى التحقيق والتثبيت ، ولايطلب له جواب ، ولكن المقصود إثبات الحقيقة فى ذاتها كما فى قوله تعالى : " **ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين** " بمعنى "

قد ربيناك .." وهكذا ، وهو إنشاء لفظاً خبر معنى . وثانيهما : أن يطلب إقرار المخاطب وتسليمه بما يقول المقرر ، وحينئذ يطلب له جواب ، ويكون إنشاء لفظاً ومعنى كما فى قوله سبحانه " ألست بربكم ؟ قالو بلى " ، ومنه قول جرير :

ألستُمْ خيرَ من ركبَ المطايا وأَنْدى العالمين بطونَ راح [٣٨]

واضطراب التصنيف هنا يبدو فى مظهرين . أولهما : تقسيم الاستفهام التقريرى إلى هذين النوعين فلا معنى لهذا التقسيم لأن المبرر الذى قدمه المؤلف له واه ، بل هو موضع الاضطراب والخلل ، فمعنى التحقيق والتثبيت قائم فى النوعين معاً ، ولاينفصل طلب إقرار المخاطَب وتسليمه عن دلالة التحقيق والتثبيت والشواهد التى ساقها المؤلف خير دليل على ذلك، وقد حاول المؤلف ـ القول بخاصية أخرى للتمييز بين النوعين فجعل النوع الأول " لا يطلب له جواب " وجعل الثانى " يطلب له جواب " .

والواقع أن طلب الجواب غير وارد فى الضربين وإن كان احتمال الجواب وارداً فى بعض المواضع ، ولكن ورود الجواب فى هذه المواضع لايعنى اشتمال التركيب على ما يدل على الطلب ، ولذلك جاء تعليق المؤلف على الشواهد غير دقيق ، ففى تعليقه على الشاهد الأول " ألم نربك فينا .." قال : بمعنى " قد ربيناك " زاعماً أن الدلالة هنا لايطلب منها إقرار المخاطب وليس ثم ما ينفى ذلك ، وظاهر كلامه على بيت جرير " ألستم خير من ركب المطايا " أنه يعنى إقرار المخاطَب دون مطلق دلالة التقرير ، ولكن ماينطبق على الشاهد الأول ينطبق على بيت جرير ، ولايوجد ما يحول دون إرادة التحقيق والتثبيت دونما طلبٍ لإقرار المخاطب ، وبذلك ينطبق على بيت جرير أن يكون المعنى " أنتم خير من ركب المطايا " بدلالة "مطلق التقرير" ، وليس هذا بدعاً من القول نزعمه ، فقد قال به بعض القدماء من البلاغيين العرب ، ففى تعليق محمد بن على بن محمد الجرجانى فى كتابه (الإشارات والتنبيهات) على هذا البيت يقول : " والمعنى : أنتم خير من ركب المطايا ؛ لأن إنكار النفى مستلزم الاعتراف بالثبوت " [٣٩] ، أما المؤلف الحديث فقد فصل السؤال عن سياقه ، كما أنه لم يأخذ فى اعتباره طرفى الخطاب ، وتلك أمور لابد منها فى معالجة هذا التركيب أو غيره ، فإذا رجعنا إلى بيت جرير وجدناه جاء فى سياق مدحىّ ، بل هو البيت الذى استوقف عبد الملك بن مروان (الممدوح) ساعة إنشاد القصيدة التى جاء فيها ، فقد كان عبد الملك غاضباً على جرير لأنه ذهب بأكثر مدائحه للحجاج ، ومازال جرير به معتذراً طالباً الإذن فى الإنشاد حتى تم له ذلك ، يقول جرير فى عرضه لهذا الخبر :

" ... فلما سلمت عليه ودعوت له ، قال : إنما أنت للحجاج ، قال : قلت : ولك يا أمير المؤمنين ، وإنما الحجاج سيفك ويمينك ، فأذن لى ، فسكت ولم يأذن ، فاندفعت فقلت :

أتصحو بل فؤادُك غيرُ صَـــاح

حتى فرغت منها ، وعرفت أنى إن لم أخرج بجائزة كان أسقاطى أبدا قال ، فقال : بل فؤادك !

قال : ومضيت فيها :

عشيـــــةَ هَمَّ صحبُـــك بالرَّواح

حتى بلغت الشكوى لأم حزرة وبنيها ، وأتيت على قولى :

ألستُمْ خيرَ من ركب المطايا وأنْدَى العالمينَ بُطُونَ رَاح

قال : فضحك وجعل يقول : كذاك نحن ، قال : فردها على ، قال : فرددتها عليه ، فقال : ويحك أترها ترويها مئة من الأبل ؟ قال : قلت : نعم ... "(٤٠) ، فهذا الخبر - بداية - يشير إلى أن أقصى بلوغ للتأثير فى المتلقى (الممدوح) كان بالسؤال الذى يدور حوله حديثنا ، وإذا تجاوزنا هذا الخبر والملابسات التاريخية إلى السياق الشعرى الذى جاء فيه وجدنا أن البيت (السؤال) جاء بعد عدة أبيات وجه الخطاب فيها إلى (أم حزرة) ، ثم الخليفة ، وتدور دلالات هذه الأبيات جميعًا حول ما يأمله الشاعر من عطايا ومنح ، حتى جاء هذا البيت الذى هز الخليفة للسماح والندى وبعثه على المكافأة ، يقول فى هذه الأبيات :

سأمتاحُ البحورَ فجنّبينـــــــــى أذاةَ اللومِ وانتظرى امْتياحــى
تِقِى با للهِ ليسَ له شريــــــــكٌ ومَنْ عند الخليفة بالنجـــاح
أعِنّى يا فِداكَ أبى وأمـــــــــى بسيبٍ منك إنك ذو ارتيـاح
وإنى قد رأيتُ علىَّ حقّــــــاً زيارتىَ الخليفةَ وامْتداحـــى
سأشكرُ أن رددتَ علىَّ رَيشـى وأثْبتَّ القوادمَ فى جناحــى
ألستُمْ خيرَ من ركب المطايـــا وأنْدَى العالمين بُطونَ راح(٤١)

وكيف - بعدما قدم به الشاعر لهذا السؤال - يمكن القول بأن السؤال هنا يُطلب له جواب ؟

المظهر الآخر :

وهو يترتب على المظهر الأول ، لأن المؤلف بنى على مبرراته التى أشرنا إليها كون الضرب الأول " إنشاء لفظاً خبر معنى " وكون الضرب الثانى " إنشاء لفظاً ومعنى " ومادامت هذه المبررات التى قسم على أساسها التقرير إلى ضربين ليست من الدقة بحيث تتلاءم مع البنية التنظيرية للعلوم فإن النتائج التى ترتبت على هذه المبررات ليست من الدقة بل ليست من الصواب بمكان ، هذه ناحية ، والأخرى .. أن المؤلف بهذا الفصل بين اللفظ والمعنى يتعلق بغبار ثنائية نشأت حولها خصومات فى التراث العربى حتى غدت إحدى القضايا النقدية التى أفرزت العديد من الأفكار ، ولكن الدراسات النقدية الحديثة التى قامت حول القضايا النقدية القديمة قد حسمت هذه الخصومة بل إن حسمها يمتد إلى آراء النقاد المتأخرين من القدماء ، ويكفى أن نشير هنا إلى قول ابن رشيق : " فاللفظ جسم روحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط

الروح بالجسد يقوى بقوته ، ويضعف بضعفه "[٤٢] ، لم يعد ثَمَّ مايبرر وجود هذا الفصل بين الفكرة المجردة (المعنى) والصياغة اللغوية (اللفظ) ، وبالتالى فلا معنى لأن تحتفظ البلاغة بهذه الثنائية لتدخل فى التصنيفات التنظيرية التى تعد أساس النسيج الذى يتكون منه العلم .

ولأن المقدمات حفلت بهذا القدر من الاضطراب فلا عجب أن نجد آثار ذلك فى التناقض الذى يقع فيه المؤلف إذ يعود فى الصحيفة ذاتها ليقرر بشكل مطلق دون تمييز بين النوعين المزعومين " والتقرير أحد المعانى التى يخرج إليها الاستفهام عن حقيقته التى تعنى جهل المستفهم بما يستفهم عنه ، وهذا ليس قائماً فى التقرير " [٤٣] لينفى بهذا القطع وجود دلالة الطلب فى الاستفهام التقريرى بنوعيه بإثباته معرفة السائل ونفى الجهل عنه .

السؤال والاستفهام :

هل يصلح مصطلح " السؤال " بديلاً عن مصطلح الاستفهام ؟

إن مشكلة المصطلح التى تطرح الآن فى الدراسات النقدية تولى جلى اهتمامها للتضارب الذى ينشأ من انبثاق مصطلح جديد فى الساحة النقدية ، وبذلك يحتل المصطلح الجديد حيزاً كبيراً فى الدراسات الحديثة ، يقف الاهتمام بالمصطلح القديم دون ذلك ، على الرغم من أن ما يعتريه من الخلط والاضطراب لايقل أثراً فى توجيه مسار الفكر الأدبى والنقدى عن المصطلح الجديد ، لعل المصطلح القديم أحرى بالنظر من المصطلح الجديد ، لأن المصطلح الجديد - باعتبار فى طور النشأة - تتلقفه الأقلام بالبحث والتفحص حيث إنه لما يتبوأ مكانه من الاستقرار والثبات ، ولأن هناك العديد من المصطلحات التى تستعمل بالمفهوم نفسه ، وبذلك يكون المصطلح الجديد فى بؤرة الحركة ، وربما أسهم - بشكل أو بآخر - فى إذكاء هذه الحركة وانبعاث حرارتها ، أما المصطلح القديم فقد اكتسب قدراً من الثبات - على الرغم من عدم خلوه من التضارب والتعدد أيضاً - والألفة تدفع إلى الاستقرار الذى هو من أخطر آفات العلم ، فالألفة تحول بتاب الفكر ويقعد به عن حركية المعرفة ، ويؤدى به إلى الاستكانة والرضوخ للمقولات الثابتة ، فيكتفى الدارسون المحدثون بتناقل المصطلحات القديمة باضطرابها وتضاربها دونما محاولة للنقض أو النقد أو المحاورة ، حتى غدا يقنع الدارس الحديث أن يشير إلى أن أحد القدماء استعمل المصطلح بمعنى كذا ، والآخر استعمله بمعنى كذا ، أو أن فلاناً استعمل مصطلح كذا والآخر استعمل مصطلح كذا للدلالة على مفهوم معين ، ولم ينتل حقل معرفى بهذا الداء قدر ابتلاء الدرس البلاغى قديماً وحديثاً ، الأمر الذى يجعل لإعادة النظر فى المصطلحات البلاغية أهمية لاتقل عن أهمية التفكير والتفحص فى المصطلحات الجديدة ، مادمنا نؤمن بأن البلاغة أداة نقدية ماتزال قادرة على العطاء فى مجال النقد الأدبى .

ومن ثم وجب علينا ألا نتلقى المصطلح البلاغى أو النقدى القديم بوصفه مسلمة لامجال للخوض فيها ، فذلك لن يزيد البلاغة إلا عقماً وجموداً ، والأجدى أن نتلقى هذه المصطلحات القديمة تلقى

الأطروحة التى تظل تحت مجهر البحث والدرس والتأمل وأن يكون الحكم بقبولها أو رفضها أمراً وارداً ، وأن يكون المصطلح - بالتالى - قابلاً للتعديل أو التغير ، فى ذاته ، أو فى تحديد مفهومه ، وأن نضع فى اعتبارنا تلك المناقشات والمحاورات التى تدور حول المصطلح حديثاً ، والخصائص التى تجعل هذا المصطلح مقبولاً ، والتى يمكن تحديدها فى أن يمثل كل مفهوم بمصطلح مستقل يستوعب ما يندرج تحت مفهومه من القضايا والجزئيات ، وألا يمثل المفهوم الواحد بأكثر من مصطلح .[٤٤]

لقد رأينا فى الصفحات السابقة أن الاستفهام لايصلح مصطلحاً يفى بالمادة التى تندرج تحت مفهومه فى الدرس البلاغى ، ورأينا أن الخروج عن المفهوم الاصطلاحى أضعاف الامتثال له ، فهو بالتالى لايستوعب القضايا والجزئيات المطروحة فى وجودها الفعلى فى النصوص قرآناً وحديثاً وخطابة وشعراً ، ولكن يبقى التساؤل : هل يصلح مصطلح السؤال بديلاً عن مصطلح الاستفهام ؟

ليس حسم هذا الأمر بالأمر الهين أو اليسير ، إذ لا يمكننا ، الإجابة القاطعة الصارمة عن هذا التساؤل قبل أن نعرض لبعض القضايا التى قد تؤدى بشكل أو بآخر إلى شىء من الخلط والاضطراب ، على الرغم من أن أبى هلال العسكرى فى كتابه " الفروق فى اللغة " يحسم هذه القضية فى حديثه عن الفرق بين السؤال والاستفهام إذ ذهب إلى " أن الاستفهام لايكون إلا لما يجهله المستفهم أو يشك فيه ، وذلك أن المستفهم طالب لأن يفهم ، ويجوز أن يكون السائل يسأل عما يعلم وعمّا لايعلم ، فالفرق بينهما ظاهر " [٤٥] ، وإن كان أبو هلال نفسه لا يلتزم بهذا الفرق فى كتاب " الصناعتين " فيذكر الخبر والوصف فى صورة الاستفهام فى الفصل الذى عقده عن التلطف[٤٦] ومع ذلك يبقى التفريق الذى ذكره بين الاستفهام والسؤال مميزاً جديراً بالانتباه لما يحمله من إمكان لفض إشكالية المصطلح ، بحسم اندراج ذلك التركيب النحوى الذى ظل زمناً طويلاً يعرف فى كتب البلاغة " بالاستفهام " تحت مصطلح "السؤال"، مع إيماننا بأن ذلك لن يتيسر إلا بمزيد من التحديد بنفى بعض الدلالات التى يحملها المفهوم المعجمى للسؤال ، فلا مناص من كون الدلالة المعجمية مدخلاً طبيعياً للدلالة الاصطلاحية .

لاتقتصر الدلالة المعجمية لمادة " سأل " على مايتعلق بدلالة الاستفهام ، فالسؤال المتعلق بدلالة الاستفهام سؤال للمعرفة ، ولكن كونه للمعرفة سيعود بنا إلى دلالة الطلب فى مصطلح الاستفهام ، وإنما نذكره هنا لتداخله مع دلالة لغوية أخرى للسؤال وهى التى تعنى طلب شئ مادى : المال ونحوه [٤٧] وليس فى كلمة " السؤال " فى ذاتها مايتضمن فصلاً بين الدلالتين ، ومن ثم لاتصلح الدلالة المعجمية منطلقاً للدلالة الاصطلاحية التى ربما كانت كلمات أبى هلال العسكرى فى " الفروق " أكثر تحديداً لها .

ولكن ثم ملحظ فى التحديد المعجمى لدلالتى السؤال يفصل القول فى هذه الإشكالية ويتعلق بتعدى الفعل " سأل " ، يقول : " أبوا البقاء فى الكليات " والسؤال إذا كان بمعنى الطلب والالتماس يتعدى إلى مفعولين بنفسه ، وإذا كان بمعنى الاستفسار يتعدى إلى الأول بنفسه وإلى الثانى بعن ، تقول : سألته كذا ، وسألته عنه سؤالاً " [٤٨] ثم يعود أبو البقاء إلى إطلاق القول فى مفهوم (السؤال)

بقوله : " والسؤال للمعرفة قد يكون للاستعلام ، وتارة للتبكيت ، وتارة لتعريف المسؤول وتبيينه ، والسؤال إذا كان للتعريف تعدى إلى المفعول الثانى تارة بنفسه وتارة بـ (عن) وهو أكثر نحو : (ويسألونك عن الروح) [٤٩] وإذا كان لاستدعاء مال فيتعدى بنفسه نحو (واسألوا ما أنفقتم) [٥٠] أو بـ (من) نحو : (واسألوا الله من فضله) ، والسؤال كما تعدى بـ (عن) لتضمنه معنى التفتيش تعدى بالباء أيضاً لتضمنه معنى الاعتناء " [٥١] وذكر صاحب مختار الصحاح (سأل سائل بعذاب واقع) أى عن عذاب واقع ، قال الأخفش ؛ يقال : " خرجنا نسأل عن فلان وبفلان " [٥٢] ومع ذلك يمكن فى حالى السؤال التعدى لمفعول واحد ، ففى بيت لبيد بن ربيعة :

فوقفتُ أسألُها وكيف سؤالنا صُمَّاً خوالدَ ما يبين كلامُها[٥٣]

تعدى الفعل " أسأل " إلى مفعول به واحد كما تعدى المصدر " سؤال " كذلك إلى مفعول واحد ، والسؤال فى الحالين يعنى الاستفسار والاستعلام . وفى الحديث الشريف قول الرسول صلى الله عليه وسلم " من سأل الناس تكثراً فإنما يسأل جمراً ، فليستقل أو ليستكثر " [٥٤] ويمكن التمييز بين الدلالتين من حيث التعدية بكون السؤال بمعنى الاستفسار ونحوه يتعدى بـ (عن) ، أو يمكن تعديه بـ (عن) وإن تعدى بنفسه أو بحرف جر غيرها ، أما السؤال الذى هو لطلب المال ونحوه فلا يتعدى بعن مطلقاً ، وإذا أضفنا إلى هذا التميز كون السؤال المعنى هنا تركيباً نحوياً أمكننا تحديد الدلالة الاصطلاحية للسؤال بأنه : تركيب نحوى تستعمل فيه أدوات مخصوصة يسأل به عن شئ طلب له جواب أو لم يطلب ، يتعدى بـ (عن) أو يجوز تعديه بها إن تعدى بغيرها ، ويتميز السؤال فوق هذه المميزات بكونه فى حقل معرفى محدد ، ويمكننا إضافة الخاصية التى اعتمد عليها أبو هلال العسكرى فى التمييز بين السؤال والاستفهام أن الاستفهام لايكون إلا لما يجهله المستفهم ، ويجوز أن يكون السائل سائلا عما يعلم وعما لايعلم ، فإن فى ذلك تبريراً للعدول عن مصطلح الاستفهام إلى مصطلح السؤال .

وحرى بالإشارة أن تغير المفهوم الاصطلاحى للاستفهام ، ليتجاوز المفهوم اللغوى المعجمى بمزيد من التحديدات لايحل إشكالية المصطلح ، لأن الاستفهام لاينفصل عن دلالة الطلب التى تقتضيها الهمزة والسين والتاء ، وهذا أيضاً يصدق على الاستخبار .

ومما يؤنس به فى إيثار السؤال على الاستفهام كتاب " الحروف " لأبى نصر الفارابى ، فقد عقد للسؤال باباً أسماه " حروف السؤال " وهو إن لم يميز بين الاستفهام والسؤال ولم يقدم مبرراً لإيثار السؤال على الاستفهام ، فقد تناثرت مقولاته مؤيدة ماذهبنا إليه هنا ، فمن ذلك قوله : " واستعمال السؤال ليس إنما يكون عند مخاطبة الإنسان لآخر ، لكن عندما يُروّى الإنسان فيما بينه وبين نفسه أيضاً ، فإنه قد يسأل نفسه وهو نفسه يجيب عن شئ من هذه فيما بينه وبين نفسه ، وليس يلتمس أن يستفيد من تلقاء نفسه إلا ذلك العلم الذى كان يؤمل أن يستفيده من غيره إذا سأله عنه " [٥٥] فسؤال المرء نفسه

تنتفى منه دلالة الاستفهام ، وإن لايقتصر الجواب على ماذكره الفارابى هنا ، فقد يطرح الإنسان سؤالا وهو أعلم بجوابه من غيره ، فإذا أجاب فلا فائدة تعود إليه بمزيد من معرفة وإنما يسأل هنا لطرح المعرفة ، وقد يكون سؤال الإنسان نفسه ضرباً من التأمل أو إظهار الدهشة أو الحيرة أو ما إلى ذلك .

وقد أشار الفارابى أيضاً إلى أن السؤال الجدلى إنما يكون عن غير جهل ، وبالتالى تنتفى عنه أيضا دلالة الاستفهام [٥٦] بيد أنه أشار إلى مجازية السؤال عندما يكون غير حقيقى [٥٧] والقول بمجازية السؤال يخلط الأمر بين السؤال والاستفهام ، إذ جعل سؤال العارف على سبيل المجاز شأن الاستفهام ، وبالتالى تظل كلمات أبى هلال العسكرى أوفى حديث فى التراث عن التمييز بين السؤال والاستفهام .

* * *

السـؤال
رؤيـة أسلوبـية

لعل الملاحظات التى وقفنا عليها فى الصفحات السابقة تكشف لنا عن بعض إمكانيات السـؤال وخصوصيته وتميزه فى ذاته لما توفر له من إمكانيات التواصل بين المنشىء والمتلقى ، وتجدر بنا الإشـارة هنـا إلى أن محاولة تحليل التركيب النحـوى مجتزأ مـن سياقه أمـر لا تتنكـر لـه الأسـلوبية بوصفهـا أداة نقديـة ـ تعايشت مع البلاغة أو قامت على أنقاضها ـ فقد تعرض الأسلوبيون للتركيب النحوى بوصفه اختيـاراً بـين عدة بدائل ، فالأسلوب فى أحد مفاهيمه " يمثل اختياراً بين مدخـر مـن الإمكانيـات " [٥٨] ومـن هنـا كـان تفريق (بالليى) بين عدة مستويات من الخطاب : " فعندمـا أعطـى أمـراً أسـتطيع أن أقـول : افعلـوا هـذا ، بدون أى نبر ، أى بالبقاء على مستوى الإيصـال البحـت ، أو أقـول : أوه افعلـوا هـذا ، أو آه ! إذا أردتم فعل هذا ، أو : أوه ، نعم افعلوه ، أكون بهذا قد عبرت عن رغبتى ، وعن أملى ، وعن نفاد صـبرى " [٥٩] وعلى أساس من هذا التفريق جاء حديثهم عـن المضمـون الوجدانـى للغـة بـين تركيـب وآخـر مـن البدائـل الممكنة .

أما تناول البلاغة العربية للسؤال بوصفه (أسلوب استفهام) فهو لا يقتصر ـ كما أشرنا ـ علـى تحليل التركيب النحوى الواحد مجتزأ من سياقه ، ولكنه يتعدى ذلك إلى معالجة نمط من التراكيب النحوية ، ولكن هذه المعالجة ـ مـع تجاوزهـا هـذا ـ جـاءت عـاجزة علـى مستوى التحليـل والإجـراءات التطبيقيـة ، لانصرفها إلى متابعة الشاهد والمثال والجملة " [٦٠] عـن النظـرة الكليـة للـتركيب فـى النـص التـى يمكـن أن تؤسس لنظرية بلاغة النص ، ولعل ذلك ما قصده د. رجاء عيد ببلاغة القصيدة " التى تخوق على شـرائط البلاغيين " [٦١] ، وقد وقفنا على جانب من ذلك .

بين هاتين النظرتين تقف محاولتنا هذه ، بوصفها محاولة تنظيرية تطمح إلى تأصيل معالجة نمـط مـن التراكيب النحوية على هدى من معطيات الأسلوبية الحديثة ، واضعة فى حسابها الوجود الفعلـى للـتركيب فى النصوص ، وتجاوزه للوجود النظرى فى مقولات البلاغيين التقليديين .

يتوزع الدرس الأسلوبى بين عدة أبعاد ، استقل كل بعد منها باهتمام بعض الباحثين والدارسـين على المستويين النظرى والتطبيقى ، وبقيت هذه الأبعاد مثارةً بوصفها قضايا الأسـلوبية التـى تعايشـت فـى مجال الدرس الأسلوبى ، وهذا ليس معرض الحديث التفصيلى عن الأسلوبية وقضاياها ، فسنقتصر هنا علـى القضايا التى تتصل اتصالاً حميماً بموضوع دراستنا هذه ، والتى تتلخص فى القضايا الآتية : ـ

١ ـ السؤال وفكرة الانحراف الأسلوبى .

٢ ـ السؤال بوصفه اختياراً بين بدائل عديدة .

٣ ـ السؤال بوصفه ظاهرة أسلوبية فى النص .

أولاً : السؤال وفكرة الانحراف الأسلوبى .

ليست فكرة الانحراف الأسلوبى الفكرة الأهم فى دراسة السؤال من وجهة نظر أسلوبية ، ولكنها - مع ذلك - تبقى الفكرة الأولى التى تجدر بالمناقشة ؛ لأنها أولى قضايا الأسلوبية التى ارتبطت بالسؤال بوصفه أحد الأساليب المتميزة التى تدخل فى نطاق الدرس الأسلوبى ، بل ربما كان وجود تركيب السؤال على المستوى الفنى مرتبطاً أساساً بفكرة الانحراف هذه إذا أخذنا فى اعتبارنا مقولات البلاغيين العرب عن أصل الاستعمال ، وعلى حد قولهم فإن السؤال يدخل فى الدرس البلاغى والاستعمال الفنى إذا خرج عن الأصل الذى وضع له أولاً ، أى إذا خرج عن دلالة الاستفهام إلى دلالات أخرى ، وإن كان هذا القول أيضا بحاجة إلى مراجعة ، فما الأصل الذى وضع أولاً ؟ أهو استعمال السؤال للاستفهام عن شىء مجهول عند السائل فى البدء ، أى قبل أن يخرج السؤال إلى دلالات أخرى ، أم هو استعمال السؤال للاستفهام فى اللغة المعيارية ولغة التواصل اليومى غير البلاغية ؟

لايمكن أن تكون الإجابة باعتبار الأصل الذى وضع أولاً هو كون استعمال السؤال فى البدء للاستفهام عن شىء مجهول ، ففى البدء كان السؤال دهشة تحمل فى طيها تعجباً أشبه بالاستنكار " وإذ قال ربُّك للملائكة إنى جاعلٌ فى الأرض خليفةً ، قالوا أتجعلُ فيها من يُفسدُ فيها ويسفكُ الدماءَ ونحن نُسَبّحُ بحمدك ونُقَدّسُ لك ؟ " [٦٢] ، وكان السؤال فى البدء أيضا تمردا وإعلانا للعصيان وليس استفهاماً " وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدمَ فسجدوا إلا إبليس قال : أأسجدُ لما خلقتَ طيناً ؟ " [٦٣] وفى البدء أيضاً كان السؤال إغراءً وغواية : " فوسوسَ إليه الشيطانُ قال : ياآدمُ هل أدُلُّكَ على شجرة الخُلد وملك لا يَبْلَى ؟ " [٦٤] ، ولعل فى ذلك ما يؤكد امتناع كون الأصل راجعاً إلى اعتبار الزمن .

ولا يمكن أيضاً أن يكون الأصل راجعاً إلى الاستعمال التواصلى اليومى أو الاستعمال المعيارى ، لأننا فى هذا الاستعمال نقول لمن نرفض منه فعلاً ما : لماذا فعلت هذا ؟ ، وإذا راجعنا استعمالنا اليومى نجد عشرات الأسئلة التى نوجهها ونحن أعلم بالإجابة عنها ، وبذلك لا تعد استفهاماً عن شىء مجهول بالنسبة لنا ، فقد نعنى بالسؤال التوبيخ أو التعجب أو الاستنكار أو غير ذلك من الدلالات .

وبذلك يتضح لنا أن وجود السؤال لغير دلالة الاستفهام مواز لوجود الاستفهام ، لا نستطيع أن نجزم بأصل وخروج عنه ، ولعل الذى وقر فى أذهاننا عن كون أصل السؤال الاستفهام كان بفعل البلاغيين والنحاة واللغويين القدماء ، الأمر الذى لا يريد أكثر الباحثين فى حقل الدراسات البلاغية مواجهته ولا يستطيعون إن أرادوا .

إن المتأمل فى دلالات السؤال - وفق مقولات البلاغيين والنحاة عن أصل الوضع - يجد

انحرافاً ذا عمق جوهرى فى تكوينات التركيب فى السياقات المختلفة ، يمتد هذا الانحراف ليشمل الاستعمال البلاغى للتركيب فى وجوده فى النصوص الفنية بشكل عام ، إذا فهمنا الانحراف على أنه انحراف عن الأصل الذى وضع أولاً – على حد قولهم – فإذا أمكن القول بالانحراف ـ من هذه الوجهة ـ فإن هذا الانحراف يقلل من جدوى ذلك الأنتشار الذى امتدت ظلاله فى الاستعمال الفنى ليكتسب قدراً من الألفة يجعل من خروج السؤال على دلالة الاستفهام أمراً مستقراً فى الاستعمال الفنى ، وبذلك تقل جدوى مناقشته بوصفه انحرافاً أسلوبياً من هذه الوجهه الضيقة .

بيد أن ثمة ملحظاً آخر لأحد مظاهر الانحراف فى أسلوبية السؤال حرى بالتأمل ويتمثل فى تجاوز السؤال الدائم الدائب للمقولات النظرية والوجود الفعلى للتركيب فى النصوص المختلفة ، فليس كل سؤال خرج عن دلالة الاستفهام إلى دلالة النفى ـ مثلاً ـ سواء ، ولا يمكن أن يكون التحليل الذى يقال فى أحد الأسئلة الدالة على التعجب ـ مثلاً ـ يصلح لأن يقال فى تحليل كل سؤال يحمل دلالة التعجب ، فقد تأتى دلالة التعجب عارضة ضمن دلالة الاستنكار ، وقد تكون دلالة السخرية مخبوءةً وراء دلالة التعجب ، وذلك يجعل الانحراف خاصية دائمة التجدد مع السؤال فى كافة استعمالاته ، وفى مختلف سياقاته ، يؤكد ذلك ما أشرنا إليه آنفاً من استعصاء السؤال على التحديد والانحصار فى مقولات نظرية بعينها .

* * *

ثانياً : السؤال بوصفه اختياراً بين بدائل عديدة : ـ

إن ما تعرض له البلاغيون القدماء من ملاحظات حول السؤال بوصفه أسلوباً مجتزأ من سياقة ، وما تحمله هذه الملاحظات من خصوصيات كامنة فى التركيب وملابسات تخلقه لا ينفصل بحال عن المعالجة الأسلوبية للسؤال بوصفه اختياراً بين بدائل من تراكيب نحوية عديدة ، فإن تلك الملاحظات تغذى الرؤية الأسلوبية للسؤال وتكشف عن جانب من جوانبها ، بيد أن هذه الملاحظات لم تكن ـ فى معظمها ـ دقيقة ، ولذلك سنعرض لها محاولين الإشارة إلى ما يمكن أن يتواصل مع الدرس الأسلوبى للسؤال ، بالإضافة إلى مظاهر الخلط والاضطراب التى اعترت المعالجة البلاغية التقليدية فيما يخص هذا الجانب .

إن الوجود الفعلى للسؤال فى النصوص يقطع بانفراده بخصوصية الهيمنة على سائر مباحث علم المعانى ، فكثيراً ما يأتى الخبر فى هذا التركيب إثباتاً ونفياً ، وكثيراً مايأتى الأمر والنهى والتمنى فى تركيب السؤال أيضاً ، وليس عكس ذلك صحيحاً ، فلا يرد هذا التركيب فى صورة من هذه الصور ، وبذلك يتضح أن تحديد البلاغيين له بوضعه فى هذه الدائرة التصنيفية أمر بحاجة إلى مراجعة ، كما يتضح أن الذى دفعهم إلى ذلك هو وضع التركيب فى هذا الإطار الضيق الذى يقتضيه تعريفهم الذى التزموا به فى سائر كتبهم.

وثمة ملحظ آخر من خصوصيات التركيب يشهد بتجاوزه أيضاً لمنطلقات مفهوم المصطلح الذى وضعه البلاغيون له يتمثل فى تفرده من بين أساليب الإنشاء بتجاوز ذاته ، فالتمنى لايتجاوز دلالة التمنى إذا انتقل إلى الاستعمال الفنى ، والأمر أمر فى اللغة المعيارية وفى اللغة الفنية ، والنهى نهى فى كلتا الحالين ، وكذلك النداء ، وإذا تجاوز أحد هذه التراكيب ذلك ففى أضيق حدود ، أما الاستفهام فإنه إذا دخل فى الاستعمال الفنى يتجاوز دلالة الطلبية فى الغالب الأعم ، ولايلتزم بها إلا فى أضيق حدود بحيث لايتعدى نماذج محدودة .

من السلبيات التى التصقت بالدرس البلاغى على مستوى التنظير والمعالجة التطبيقية تلك النظرة الجزئية للظاهرة البلاغية ، يستوى ذلك فى معالجتهم للبيان والبديع والمعانى ، وإذا كانت مباحث علمى البيان والبديع تسمح بشئ من هذه النظرة الجزئية فإن الأمر يختلف فى مباحث علم المعانى ، لأنها تختص بالتراكيب النحوية والأساليب ، وقد كان من آثار هذه النظرة الجزئية فى معالجة التركيب التى بين أيدينا تحديدها بكونها أسلوباً ، وكان من نتائج تلك النظرة أن اتجهت معالجات البلاغيين نحو دلالة التركيب فى وجوديه : المنحصر فى دائرة مفهوم الاستفهام الحقيقى ، والخارج عن هذا الدائرة إلى دلالات أخرى ، والذى يعنينا هنا هو التركيب فى خروجه إلى دلالات تتجاوز مفهوم الاستفهام ـ كما أسلفنا ـ لأن ذلك الخروج هو مناط تألقه وجمالياته وسبيله إلى الدخول فى الأساليب ذات الشحنات الانفعالية الوجدانية ، وبالتالى فهو سبيله إلى الدخول فى حقل الدراسة الأسلوبية .

ومع أن البلاغيين أوقفوا جهودهم عند حدود " الاستفهام " بوصفه تركيباً جزئياً يحتوى عليه النص القرآنى والشعرى والخطابى وغير ذلك فإن معالجاتهم – فى ظل هذه الملابسة – لم تكن من الدقة بحيث إننا إذا اعتبرنا هذه النظرة هى المرجعية التى تناقش معالجاتهم على أساس منها فإن ذلك لايدفع عن هذه المعالجة القصور والخلل ، ثم ليقف هذا القصور شاهداً على تجاوز التركيب واستعصائه على التحديد ، الأمر الذى يضيف إلى خصوصياته وتميزه ميزة أخرى ومظهراً آخر من مظاهر تجاوزاته العديدة.

إن الاضطراب فى معالجة البلاغيين للتركيب بوصفه أسلوباً مجتزأً من سياقه يتمثل فى عدة مواقف نشير إلى بعضها على سبيل المثال لا الحصر. قبل أن نشرع فى الرؤية التى تسير على هدى من مقولات الأسلوبية الحديثة وقضاياها .

اختلط الأمر على السكاكى فى حديثه عن استعمال " أنى " فذكر أنها تستعمل بمعنى كيف واستشهد على ذلك بقوله تعالى " فأتوا حرثكم أنى شئتم " [٦٥] ثم قال " أى : كيف شئتم " [٦٦] ، وتبعه فى ذلك القزوينى فى التخليص والإيضاح كما تبعه شراح التلخيص[٦٧] ومع احتمال كلمة (أنى) معنى (كيف) فإنها بعيدة عن دلالة الاستفهام ، لأن (كيف) ليست دائماً استفهامية ؛ فهى تستعمل شرطية كما تستعمل للدلالة على مطلق الحال .

وقد أشار د. محمد عبد المنعم خفاجى فى (شرح الإيضاح) إلى القول بشرطية (أنى) هنا " وقيل إنها بمعنى متى وأنه معنى ثالث لها "[٦٨] وغنى عن التنبيه أن استعمالها بمعنى متى أيضاً ليس من الاستفهام فى شىء فى هذا الموضع .

ويبدو هذا الاضطراب واضحاً أيضاً فى معالجاتهم تلك فى التضارب بين أقوالهم فى تصنيف بعض النصوص ـ أو قل الشواهد المجتزأة من سياقاتها ـ وقد جاء هذا التضارب تبعاً لتضاربهم فى الأصول النظرية التى صنفوا التركيب فى بعض المواضع على أساس منها.

ذكر الزركشى فى كتابه " البرهان فى علوم القرآن " أن " هل " لاتقع تقريراً كما يقع غيرها مما هو للاستفهام " ثم قال " وقال الكندى : ذهب كثير من العلماء فى قوله تعالى (هل يسمعونكم) إلى أن (هل) تشارك الهمزة فى معنى التقرير والتوبيخ ، إلا أنى رأيت أبا علّى أبى ذلك ، وهو معذور، فإن ذلك من قبيل الإنكار ، ونقل الشيخ أبو حيان عن سيبويه أن استفهام التقرير لا يكون بـ (هل) ، إنما تستعمل فيه الهمزة ، ثم نقل عن بعضهم أن هل تأتى تقريراً فى قوله تعالى : " هل فى ذلك قسم لذى حجر "[٦٩] وقد التفت عبد القاهر الجرجانى إلى إمكان إفادة التركيب أكثر من دلالة فى بعض استعمالاته وهذا وإن كان إدراكا لتجاوز التركيب للتحدد فى دلالة واحدة ، فإنه لم يجد من عبد القاهر ومن تلاه اضطراداً فى تحليل هذه التراكيب والوقوف على أقصى إمكاناتها فى إبداع الدلالات ، ففى تعليق عبد القاهرعلى قوله تعالى حكاية عن قوم إبراهيم : " أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم " يقول بعد تحليل الاستفهام "

الروح بالجسد يقوى بقوته ، ويضعف بضعفه "[٤٢] ، لم يعد ثَمَّ مايبرر وجود هذا الفصل بين الفكرة المجردة (المعنى) والصياغة اللغوية (اللفظ) ، وبالتالى فلا معنى لأن تحتفظ البلاغة بهذه الثنائية لتدخل فى التصنيفات التنظيرية التى تعد أساس النسيج الذى يتكون منه العلم .

ولأن المقدمات حفلت بهذا القدر من الاضطراب فلا عجب أن نجد آثار ذلك فى التناقض الذى يقع فيه المؤلف إذ يعود فى الصحيفة ذاتها ليقرر بشكل مطلق دون تمييز بين النوعين المزعومين " والتقرير أحد المعانى التى يخرج إليها الاستفهام عن حقيقته التى تعنى جهل المستفهم بما يستفهم عنه ، وهذا ليس قائماً فى التقرير " [٤٣] لينفى بهذا القطع وجود دلالة الطلب فى الاستفهام التقريرى بنوعيه بإثباته معرفة السائل ونفى الجهل عنه .

السؤال والاستفهام :

هل يصلح مصطلح " السؤال " بديلاً عن مصطلح الاستفهام ؟

إن مشكلة المصطلح التى تطرح الآن فى الدراسات النقدية تولى جلى اهتمامها للتضارب الذى ينشأ من انبثاق مصطلح جديد فى الساحة النقدية ، وبذلك يحتل المصطلح الجديد حيزاً كبيراً فى الدراسات الحديثة ، يقف الاهتمام بالمصطلح القديم دون ذلك ، على الرغم من أن ما يعتريه من الخلط والاضطراب لايقل أثراً فى توجيه مسار الفكر الأدبى والنقدى عن المصطلح الجديد ، لعل المصطلح القديم أحرى بالنظر من المصطلح الجديد ، لأن المصطلح الجديد - باعتبار فى طور النشأة - تتلقفه الأقلام بالبحث والتفحص حيث إنه لما يتبوأ مكانه من الاستقرار والثبات ، ولأن هناك العديد من المصطلحات التى تستعمل بالمفهوم نفسه ، وبذلك يكون المصطلح الجديد فى بؤرة الحركة ، وربما أسهم - بشكل أو بآخر - فى إذكاء هذه الحركة وانبعاث حرارتها ، أما المصطلح القديم فقد اكتسب قدراً من الثبات - على الرغم من عدم خلوه من التضارب والتعدد أيضاً - والألفة تدفع إلى الاستقرار الذى هو من أخطر آفات العلم ، فالألفة تحول بتاب الفكر ويقعد به عن حركية المعرفة ، ويؤدى به إلى الاستكانة والرضوخ للمقولات الثابتة ، فيكتفى الدارسون المحدثون بتناقل المصطلحات القديمة باضطرابها وتضاربها دونما محاولة للنقض أو النقد أو المحاورة ، حتى غدا يقنع الدارس الحديث أن يشير إلى أن أحد القدماء استعمل المصطلح بمعنى كذا ، والآخر استعمله بمعنى كذا ، أو أن فلاناً استعمل مصطلح كذا والآخر استعمل مصطلح كذا للدلالة على مفهوم معين ، ولم ينتل حقل معرفى بهذا الداء قدر ابتلاء الدرس البلاغى قديماً وحديثاً ، الأمر الذى يجعل لإعادة النظر فى المصطلحات البلاغية أهمية لاتقل عن أهمية التفكير والتفحص فى المصطلحات الجديدة ، مادمنا نؤمن بأن البلاغة أداة نقدية ماتزال قادرة على العطاء فى مجال النقد الأدبى .

ومن ثم وجب علينا ألا نتلقى المصطلح البلاغى أو النقدى القديم بوصفه مسلمة لامجال للخوض فيها ، فذلك لن يزيد البلاغة إلا عقماً وجموداً ، والأجدى أن نتلقى هذه المصطلحات القديمة تلقى

بقوله : " والسؤال للمعرفة قد يكون للاستعلام ، وتارة للتبكيت ، وتارة لتعريف المسؤول وتبيينه ، والسؤال إذا كان للتعريف تعدى إلى المفعول الثانى تارة بنفسه وتارة بـ (عن) وهو أكثر نحو : (ويسألونك عن الروح) [٤٩] وإذا كان لاستدعاء مال فيتعدى بنفسه نحو (واسألوا ما أنفقتم) [٥٠] أو بـ (من) نحو : (واسألوا الله من فضله) ، والسؤال كما تعدى بـ (عن) لتضمنه معنى التفتيش تعدى بالباء أيضاً لتضمنه معنى الاعتناء " [٥١] وذكر صاحب مختار الصحاح (سأل سائل بعذاب واقع) أى عن عذاب واقع ، قال الأخفش ؛ يقال : " خرجنا نسأل عن فلان وبفلان " [٥٢] ومع ذلك يمكن فى حالى السؤال التعدى لمفعول واحد ، ففى بيت لبيد بن ربيعة :

فوقفتُ أسألُها وكيف سؤالنا صُمَّاً خوالدَ ما يبين كلامُها[٥٣]

تعدى الفعل " أسأل " إلى مفعول به واحد كما تعدى المصدر " سؤال " كذلك إلى مفعول واحد ، والسؤال فى الحالين يعنى الاستفسار والاستعلام . وفى الحديث الشريف قول الرسول صلى الله عليه وسلم " من سأل الناس تكثراً فإنما يسأل جمراً ، فليستقل أو ليستكثر " [٥٤] ويمكن التمييز بين الدلالتين من حيث التعدية بكون السؤال بمعنى الاستفسار ونحوه يتعدى بـ (عن) ، أو يمكن تعديه بـ (عن) وإن تعدى بنفسه أو بحرف جر غيرها ، أما السؤال الذى هو لطلب المال ونحوه فلا يتعدى بعن مطلقاً ، وإذا أضفنا إلى هذا التميز كون السؤال المعنى هنا تركيباً نحوياً أمكننا تحديد الدلالة الاصطلاحية للسؤال بأنه : تركيب نحوى تستعمل فيه أدوات مخصوصة يسأل به عن شئ طلب له جواب أو لم يطلب ، يتعدى بـ (عن) أو يجوز تعديه بها إن تعدى بغيرها ، ويتميز السؤال فوق هذه المميزات بكونه فى حقل معرفى محدد ، ويمكننا إضافة الخاصية التى اعتمد عليها أبو هلال العسكرى فى التمييز بين السؤال والاستفهام أن الاستفهام لايكون إلا لما يجهله المستفهم ، ويجوز أن يكون السائل سائلا عما يعلم وعما لايعلم ، فإن فى ذلك تبريراً للعدول عن مصطلح الاستفهام إلى مصطلح السؤال .

وحرى بالإشارة أن تغير المفهوم الاصطلاحى للاستفهام ، ليتجاوز المفهوم اللغوى المعجمى بمزيد من التحديدات لايحل إشكالية المصطلح ، لأن الاستفهام لاينفصل عن دلالة الطلب التى تقتضيها الهمزة والسين والتاء ، وهذا أيضاً يصدق على الاستخبار .

ومما يؤنس به فى إيثار السؤال على الاستفهام كتاب " الحروف " لأبى نصر الفارابى ، فقد عقد للسؤال باباً أسماه " حروف السؤال " وهو إن لم يميز بين الاستفهام والسؤال ولم يقدم مبرراً لإيثار السؤال على الاستفهام ، فقد تناثرت مقولاته مؤيدة ماذهبنا إليه هنا ، فمن ذلك قوله : " واستعمال السؤال ليس إنما يكون عند مخاطبة الإنسان لآخر ، لكن عندما يُروّى الإنسان فيما بينه وبين نفسه أيضاً ، فإنه قد يسأل نفسه وهو نفسه يجيب عن شئ من هذه فيما بينه وبين نفسه ، وليس يلتمس أن يستفيد من تلقاء نفسه إلا ذلك العلم الذى كان يؤمل أن يستفيده من غيره إذا سأله عنه " [٥٥] فسؤال المرء نفسه

السـؤال
رؤيـة أسلوبـية

لعل الملاحظات التى وقفنا عليها فى الصفحات السابقة تكشف لنا عن بعض إمكانيات السـؤال وخصوصيته وتميزه فى ذاته لما توفر له من إمكانيات التواصل بين المنشىء والمتلقى ، وتجدر بنا الإشـارة هنـا إلى أن محاولة تحليل التركيب النحـوى مجتزأ مـن سياقه أمـر لا تتنكـر لـه الأسـلوبية بوصفهـا أداة نقديـة ـ تعايشت مع البلاغة أو قامت على أنقاضها ـ فقد تعرض الأسلوبيون للتركيب النحوى بوصفه اختيـاراً بـين عدة بدائل ، فالأسلوب فى أحد مفاهيمه " يمثل اختياراً بين مدخـر مـن الإمكانيـات " [٥٨] ومـن هنـا كـان تفريق (بالليى) بين عدة مستويات من الخطاب : " فعندمـا أعطـى أمـراً أسـتطيع أن أقـول : افعلـوا هـذا ، بدون أى نبر ، أى بالبقاء على مستوى الإيصـال البحـت ، أو أقـول : أوه افعلـوا هـذا ، أو آه ! إذا أردتم فعل هذا ، أو : أوه ، نعم افعلوه ، أكون بهذا قد عبرت عن رغبتى ، وعن أملى ، وعن نفاد صـبرى " [٥٩] وعلى أساس من هذا التفريق جاء حديثهم عـن المضمـون الوجدانـى للغـة بـين تركيـب وآخـر مـن البدائـل الممكنة .

أما تناول البلاغة العربية للسؤال بوصفه (أسلوب استفهام) فهو لا يقتصر ـ كما أشرنا ـ علـى تحليل التركيب النحوى الواحد مجتزأ من سياقه ، ولكنه يتعدى ذلك إلى معالجة نمط من التراكيب النحوية ، ولكن هذه المعالجة ـ مـع تجاوزهـا هـذا ـ جـاءت عـاجزة علـى مستوى التحليـل والإجـراءات التطبيقيـة ، لانصرفها إلى متابعة الشاهد والمثال والجملة " [٦٠] عـن النظـرة الكليـة للـتركيب فـى النـص التـى يمكـن أن تؤسس لنظرية بلاغة النص ، ولعل ذلك ما قصده د. رجاء عيد ببلاغة القصيدة " التى تخوق على شـرائط البلاغيين " [٦١] ، وقد وقفنا على جانب من ذلك .

بين هاتين النظرتين تقف محاولتنا هذه ، بوصفها محاولة تنظيرية تطمح إلى تأصيل معالجة نمـط مـن التراكيب النحوية على هدى من معطيات الأسلوبية الحديثة ، واضعة فى حسابها الوجود الفعلـى للـتركيب فى النصوص ، وتجاوزه للوجود النظرى فى مقولات البلاغيين التقليديين .

يتوزع الدرس الأسلوبى بين عدة أبعاد ، استقل كل بعد منها باهتمام بعض الباحثين والدارسـين على المستويين النظرى والتطبيقى ، وبقيت هذه الأبعاد مثارةً بوصفها قضايا الأسـلوبية التـى تعايشـت فـى مجال الدرس الأسلوبى ، وهذا ليس معرض الحديث التفصيلى عن الأسلوبية وقضاياها ، فسنقتصر هنا علـى القضايا التى تتصل اتصالاً حميماً بموضوع دراستنا هذه ، والتى تتلخص فى القضايا الآتية : ـ

١ ـ السؤال وفكرة الانحراف الأسلوبى .

٢ ـ السؤال بوصفه اختياراً بين بدائل عديدة .

٣ ـ السؤال بوصفه ظاهرة أسلوبية فى النص .

انحرافاً ذا عمق جوهرى فى تكوينات التركيب فى السياقات المختلفة ، يمتد هذا الانحراف ليشمل الاستعمال البلاغى للتركيب فى وجوده فى النصوص الفنية بشكل عام ، إذا فهمنا الانحراف على أنه انحراف عن الأصل الذى وضع أولاً – على حد قولهم – فإذا أمكن القول بالانحراف ـ من هذه الوجهة ـ فإن هذا الانحراف يقلل من جدوى ذلك الأنتشار الذى امتدت ظلاله فى الاستعمال الفنى ليكتسب قدراً من الألفة يجعل من خروج السؤال على دلالة الاستفهام أمراً مستقراً فى الاستعمال الفنى ، وبذلك تقل جدوى مناقشته بوصفه انحرافاً أسلوبياً من هذه الوجهه الضيقة .

بيد أن ثمة ملحظاً آخر لأحد مظاهر الانحراف فى أسلوبية السؤال حرى بالتأمل ويتمثل فى تجاوز السؤال الدائم الدائب للمقولات النظرية والوجود الفعلى للتركيب فى النصوص المختلفة ، فليس كل سؤال خرج عن دلالة الاستفهام إلى دلالة النفى ـ مثلاً ـ سواء ، ولا يمكن أن يكون التحليل الذى يقال فى أحد الأسئلة الدالة على التعجب ـ مثلاً ـ يصلح لأن يقال فى تحليل كل سؤال يحمل دلالة التعجب ، فقد تأتى دلالة التعجب عارضة ضمن دلالة الاستنكار ، وقد تكون دلالة السخرية مخبوءةً وراء دلالة التعجب ، وذلك يجعل الانحراف خاصية دائمة التجدد مع السؤال فى كافة استعمالاته ، وفى مختلف سياقاته ، يؤكد ذلك ما أشرنا إليه آنفاً من استعصاء السؤال على التحديد والانحصار فى مقولات نظرية بعينها .

* * *

ومع أن البلاغيين أوقفوا جهودهم عند حدود " الاستفهام " بوصفه تركيباً جزئياً يحتوى عليه النص القرآنى والشعرى والخطابى وغير ذلك فإن معالجاتهم – فى ظل هذه الملابسة – لم تكن من الدقة بحيث إننا إذا اعتبرنا هذه النظرة هى المرجعية التى تناقش معالجاتهم على أساس منها فإن ذلك لايدفع عن هذه المعالجة القصور والخلل ، ثم ليقف هذا القصور شاهداً على تجاوز التركيب واستعصائه على التحديد ، الأمر الذى يضيف إلى خصوصياته وتميزه ميزة أخرى ومظهراً آخر من مظاهر تجاوزاته العديدة.

إن الاضطراب فى معالجة البلاغيين للتركيب بوصفه أسلوباً مجتزأً من سياقه يتمثل فى عدة مواقف نشير إلى بعضها على سبيل المثال لا الحصر. قبل أن نشرع فى الرؤية التى تسير على هدى من مقولات الأسلوبية الحديثة وقضاياها .

اختلط الأمر على السكاكى فى حديثه عن استعمال " أنى " فذكر أنها تستعمل بمعنى كيف واستشهد على ذلك بقوله تعالى " فأتوا حرثكم أنى شئتم " [٦٥] ثم قال " أى : كيف شئتم " [٦٦] ، وتبعه فى ذلك القزوينى فى التخليص والإيضاح كما تبعه شراح التلخيص[٦٧] ومع احتمال كلمة (أنى) معنى (كيف) فإنها بعيدة عن دلالة الاستفهام ، لأن (كيف) ليست دائماً استفهامية ؛ فهى تستعمل شرطية كما تستعمل للدلالة على مطلق الحال .

وقد أشار د. محمد عبد المنعم خفاجى فى (شرح الإيضاح) إلى القول بشرطية (أنى) هنا " وقيل إنها بمعنى متى وأنه معنى ثالث لها "[٦٨] وغنى عن التنبيه أن استعمالها بمعنى متى أيضاً ليس من الاستفهام فى شىء فى هذا الموضع .

ويبدو هذا الاضطراب واضحاً أيضاً فى معالجاتهم تلك فى التضارب بين أقوالهم فى تصنيف بعض النصوص ـ أو قل الشواهد المجتزأة من سياقاتها ـ وقد جاء هذا التضارب تبعاً لتضاربهم فى الأصول النظرية التى صنفوا التركيب فى بعض المواضع على أساس منها.

ذكر الزركشى فى كتابه " البرهان فى علوم القرآن " أن " هل " لاتقع تقريراً كما يقع غيرها مما هو للاستفهام " ثم قال " وقال الكندى : ذهب كثير من العلماء فى قوله تعالى (هل يسمعونكم) إلى أن (هل) تشارك الهمزة فى معنى التقرير والتوبيخ ، إلا أنى رأيت أبا علّى أبى ذلك ، وهو معذور، فإن ذلك من قبيل الإنكار ، ونقل الشيخ أبو حيان عن سيبويه أن استفهام التقرير لا يكون بـ (هل) ، إنما تستعمل فيه الهمزة ، ثم نقل عن بعضهم أن هل تأتى تقريراً فى قوله تعالى : " هل فى ذلك قسم لذى حجر "[٦٩] وقد التفت عبد القاهر الجرجانى إلى إمكان إفادة التركيب أكثر من دلالة فى بعض استعمالاته وهذا وإن كان إدراكا لتجاوز التركيب للتحدد فى دلالة واحدة ، فإنه لم يجد من عبد القاهر ومن تلاه اضطراداً فى تحليل هذه التراكيب والوقوف على أقصى إمكاناتها فى إبداع الدلالات ، ففى تعليق عبد القاهرعلى قوله تعالى حكاية عن قوم إبراهيم : " أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم " يقول بعد تحليل الاستفهام "

واعلم أن الهمزة فيما ذكرنا تقرير بفعل قد كان ، وإنكار له لِمَ كان ؟ ، وتوبيخ لفاعله عليه"[٧٠]

ولكن إذا كانت الفكرة التى صدر عنها عبد القاهر من حيث هى صحيحة دقيقة ، فإن ذلك بغض النظر عن تطبيقها الذى أشرنا إليه هنا الآن ، لأنه - مع ذلك - لايفى بدلالات السؤال ، فبقليل من التأمل تجد السؤال هنا يفيد التحقير أيضاً لوضعهم المخاطب إبراهيم عليه السلام موضع مقارنه مع آلهتهم التى يجلونها ويقدسونها تحقيراً لم يطيقوا معه النطق بهذا الفعل فاكتفوا بالإشارة إليه " فعلت هذا " ، والمقارنة هنا مشربة بدلالة التضاد بين أن يَفْعَل هذا الفعل بالآلهة - على زعمهم - وأن يُفْعَل منه هو هذا الفعل ، فالسؤال يضع المخاطب دون الجرأة على القيام بهذا الفعل ، ويضع الآلهة فوق أن يقع عليها مثل هذا الفعل .

والسؤال يشير - إلى جانب ذلك - إلى نبرة تهديد غير خافية ، فما يسألونه ليكافئوه أو يمهلوه أو يتركوه ، وإنما يسألونه ليحلوا به أقصى عقاب ممكن ، إذا ما أقر بأنه فعل ذلك ، وتستطيع أن تلمس التهديد فى السؤال من الإجابة إذا لم تفصل السؤال عن سياقه ، فمع أن إبراهيم - عليه السلام - كان من الجرأة والشجاعة واليقين والثقة بحيث فعل ما فعل ، فإنه لم يقر بالفعل إقراراً صريحاً ، نعم إن الإجابة قد تحمل دلالة السخرية منهم ومن معتقدهم ولكنها سخرية تدفع إلى التفكير والتأمل والتدبر ، فهى إذن جزء لايتجزأ من دعوته إلى ترك عبادة هذه الآلهة ، ولاحتفاظها بمضمون الدعوة ففيها محاولة لإثنائهم عن أن يحلوا به عقاباً على هذا الفعل ، ومن هنا كان إقرار بعض البلاغيين بالتجاوز لحدود المقولات البلاغية التنظيرية ، فقد تنبه سعد الدين التفتازانى إلى أن مرجعية استكناه الدلالة إلى " سلامة الذوق وتتبع التراكيب فلا ينبغى أن تقتصر فى ذلك على معنى سمعته أو مثال وجدته من غير أن تتخطاه ، بل عليك بالتصرف واستعمال الروية والله هو الهادى " [٧١] ليقر بتجاوز التركيب بل العديد من المباحث البلاغية لحدود تنظير البلاغيين وتصنيفاتهم ، وقد أشار أحد المحدثين أيضاً إلى أن " المعانى التى تشير إليها هذه الأدوات ليست محصورة فيما ذكرنا ولا فيما ذكر غيرنا ، وإنما هى متولدات تشيعها السياقات والصيغ ... إن قولنا إن الاستفهام هنا للإنكار أو للاستبعاد أو التقرير أو غيره ليس فى حقيقته تحقيقاً لفقة الدلالة ، وإنما هو إشارة عامة إلى المرمى العام من السياق ، لأن الدلالة ذات مذاق يختلف عن مجرد الإنكار أو الاستبعاد أو غيرهما "[٧٢] لكن هاتين الإشارتين لاتعدوان أن تكونا دليلاً على قصور الدرس البلاغى قديماً وحديثاً عن الوقوف على دلالات هذه التركيب فى معالجاتهم التطبيقية واكتفوا بالقاعدة والشاهد المجتزأ ، ظناً بأنه يمكنهم حصر دلالاته والإحاطة بها .

* * *

الاختيار والبعد النفسى للسؤال : -

إن ميزة جوهرية من ميزات السؤال فى وجوده فى اللغة الفنية يتمثل فى البعد النفسى الذى يتخذه أو يكشف عنه ، يتخذه فى طريق التأثير فى المتلقى إقناعياً وجمالياً ، ويكشف عنه بالنسبة للمبدع توتراً وانفعالاً ، فالتجاء المبدع إلى السؤال من بين الخيارات والبدائل اللغوية الأخرى ، ليس مجرد صدفة عشوائية ، نعم قد لا يكون وراءها عقل أو فكر يوجه عملية الاختيار لتتم بوعى كامل ، ولكن انتفاء ذلك لا يعنى عدم وجود علل وراء اختيار السؤال .

إن ذلك لا ينفصل بحال عن البحث الأسلوبى ، إذ يدخل فى عملية الاختيار بين البدائل ، ولا شك أن البعد النفسى يعدُ أحد علل ذلك الاختيار ، ويتشكل البعد النفسى للسؤال فى مستويين :

- مستوى المبدع ودلالة اختيار السؤال من بين الأساليب والبنيات النحوية الأخرى .

- ومستوى المتلقى ومدى فاعلية السؤال دون ما عداه من هذه البدائل ، ليتخذ سبيله إلى نفس المتلقى تأثيراً وإقناعاً ، يتأسس ذلك على ما يكتنزه السؤال من شحنات انفعالية موجهة إلى التركيب (من المبدع) ، أو ناتجة عن التركيب (فى المتلقى) .

قد يكتنز السؤال وسائل تأثيرية تمارس فاعليتها فى المتلقى ، بشكل مُجْتَمِعٍ ومطلق ، أى : بلا حدود أو انفصال ، إذ قد يتشعب السؤال بين عدة دلالات فرعية ، وقد يقصد منها فىْ الموقف الواحد دلالة واحدة ، ولكنه - مع ذلك - يظل ملتبساً بثوابت تأثيرية ناتجة عن رد الفعل التلقائى عند المتلقى لكون السؤال سؤالاً فحسب ، لا لكونه سؤالاً عن شىء بعينه ، أو لكونه دالاً على غرض بعينه ، ولهذه الثوابت التأثيرية كوامن عدة ترجع إلى البعد النفسى للسؤال .

وقد تنبه إلى ذلك البعد غير واحد من النقاد المحدثين ، فالتفت د. محمد العبد إلى القيم الأسلوبية التأثيرية للسؤال فى شعر (السياب) فى إشارته إلى أن السؤال تعبير عن التوتر والحيرة والتردد والخوف [٧٣] ، كما التفت د. صلاح فضل إلى تلك القيمة التأثيرية للسؤال فى تعليقه على بيتى المتنبى :

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً ... وآفتُهُ من الفهمِ السقيمِ

ولكنْ تأخذُ الآذانُ منه ... على قدرِ القرائحِ والعلومِ

فعلى الرغم من أن (كم) هنا خبرية فإن ذلك لا ينحيها تنحية كاملة عن دلالة الاستفهام ، وإذا توفر ذلك لـ (كم) فإنه لا شك يتوفر لغيرها من أدوات السؤال التى لم يصرح النحاة والبلاغيون بخبريتها ، يقول د. صلاح فضل فى تعليقه : " ... وهى كم الإخبارية التى تفيد الكثرة وتوهُّم الاستفهام " [٧٤] ، فجمع بين دلالتى الخبر والسؤال فى رؤية البيت .

وقد كان لأداة السؤال (كم) حضورها فى قصيدة أحمد عبد المعطى حجازى ، (بحارة ماجلان)

كانت الشمس التى تلفحُنا فوق مدارِ السرطان
زهرةً مقرورةً
فوق مدارِ الجدى
ليست هذه الأرض إذن تفّاحةً ،
بل صخرةٌ ثُقلت منا
فى التقاويم التى لم نكتشف إيقاعَها الصعبَ ،
فمن يوقفُ هذا الدوران
ساعةً ،
ندفن ماجلانْ فيها ،
ونشمُّ الريحَ ، هل تحملُ طعمَ الشاطئ الآخر ؟
كم تبعدُ شيلى عن نيويورك ،
وعن موسكو ؟
وكم قبر من الساحل للساحل ؟
كم ميل تُرى بين الكلاشنكوف والأيدى ،
كم يبعدُ مبنى البرلمان
عن سلاح الطيران ! [٧٥]

تناولت الباحثة (هايدى تويل) التى قامت بتحليل القصيدة استعمال (كم) فى أسئلة حجازى على أنها خصوصية للقصيدة أو للشاعر فى ديوان (كائنات مملكة الليل) - كما أشارت - والواقع أن استعمال (كم) الذى أثارته الباحثة مرتبط باستعمالها فى لغة الشعر ارتباطاً أصيلاً حميماً كما أشرنا فى الحديث السابق عن التفريق بين استعمالى (كم) عند النحاة ، ومن ثم لا نقر ما قالته الباحثة : " ... أن الشاعر قد اختار عن قصد استخدام (كم) بمعنييها ، بانياً جملته كما لو كانت تعجباً ، ومقدماً إياها كما لو كانت تساؤلاً ، وهو يشير ، هكذا بوضوح ، إلى أن الأمر لا يتعلق إلا بأسئلة ظاهرة هى فى حقيقة الأمر أجوبة لا يحتاج إلى صياغتها هنا ، ونفضل هذا التأويل للأسئلة المصوغة فى (كائنات مملكة الليل) ، حيث يتلائم مع النص ويتفق مع رؤيتنا له " [٧٦] ، وكأن ذلك ضرب من الخصوصية فى اختيار الشاعر بين بدائل تراكيب ، والواقع أن ذلك إنما هو من خصوصيات التركيب فى استعماله الفنى الذى يتوفر لحجازى ولغيره من الشعراء .

ولا ينفصل البعد النفسى للسؤال (عند المبدع والمتلقى) - من ناحية أخرى - عن الأسلوبية ، فمن بين الاتجاهات الأساسية للأسلوبية دراسة الأسلوب بوصفه " تعبيراً عن شخصية الكاتب/ المرسل " [٧٧] ، ومنها دراسة الأسلوب بوصفه " أثراً فى القارئ / المتلقى ناتجاً عن الخصائص الداخلية للنص : المفهوم التأثرى أو العاطفى للأسلوب " [٧٨] ، وقد أفرزت تلك الملاحظات حول البعد النفسى للأسلوب

اتجاهـــاً نفسياً فى دراسة الأسلوب " يعثر على محوره الصحيح عندما يتم من خلال عملية التحليل اللغوى للصور الأدبية ودلالاتها النفسية والاجتماعية والتاريخية ومدى مـا تقدمـه كـل هـذه العوامـل فـى التكويـن الجمـالى للصـورة " [٧٩] ، ذلـك التكويـن الجمـالى الـذى ينتـج عنـه الإمتـاع أو التأثير ، لأن كـل أسـلوب يستهدف أثراً مخالفاً : " الأسلوب المتدنى يخبر ، والأسلوب المتوسط يمتع ، والأسلوب الرفيع يؤثـر " [٨٠] ، والنوعان الأخيران يدخلان فى الدراسة الأسلوبية للنصوص الفنية من وجهة نظر نقدية ولا تتخلـى مفـاهيم الأسلوبية عن ذلك ، فهى عند (بالى) " دراسة بوقائع التعبير اللغوى من زاويـة مضمونهـا الوجدانـى ، أى فى معارضتها لمضمونهـا العقلـى وهـذا التميز هـو الأساس لما نسميه الوظيفة المضاعفة للغـة " [٨١] ، هـذه بعض الأسس التى تسهم فى تكوين أساس نظرى لدراسة البعد النفسى للسؤال بوصفه ظاهرة تتحقق فيهـا جوانب عديدة من اهتمامات الدرس الأسلوبى ، وسنبدأ بمناقشة هذه الفكرة فى تناول البلاغيين العرب .

إن إدراك البعد النفسى للسؤال البلاغى ليس أمراً مستحدثاً لم يلتفت إليه أحـد مـن قبـل ، لأنـه كائن فى مقولات البلاغيين وتصنيفاتهم ـ على الرغم من ملاحظاتنا حولها ـ فهذا البعد النفسى متغلغـل فـى تلك المقولات لأنه لا ينفصل بحال عـن الوجـود الفعلى للسـؤال ، ولكـن ذلـك لا يعنـى أن البلاغيـين قـد أحاطوا بهذا البعد النفسى أو أدركوا خصوصية وتميزاً ما للسؤال من خلاله ، لأنهم لم يقوموا بتحليـل هـذا البعد النفسى فى السؤال ، وفرق كبير بين إدراك خاصية لامناص من إدراكهـا ، وبـين تحليلهـا تحليـلاً يفـى باستنباط النتائج العملية ، ولذلك جاء إدراك البعد النفسى للسؤال متمثلاً فى عدة ملاحظات حملتها كتـب البلاغة قديماً وحديثاً ، تكاد تنحصر فى حديثهم عن دلالة السؤال فى خروجه على مفهـوم الاسـتفهام ، إذ اتخذوا السؤال فى بعض الأحيان دليلاً على ما يـدور فـى نفـس سـائله أو مـاتنطوى عليـه هـذه النفـس مـن افتخار وتفجع وتمنى واستبطاء وغير ذلك ، واتخذوه ـ أحيانا أخرى ـ دليلاً على الأثر النفسـى الـذى يحدثـه فى المخاطب ، أو الذى يهدف السائل إلى إحداثه فى المتلقى ، حدث أو لم يحدث ، فقالوا بكون الغرض من السؤال التبكيت ، التهويل ، التحضيض ، التهكم والاستهزاء ، التوبيـخ ، ولكنهـم لم يتجـاوزوا ـ غالبـاً ـ مهمة الرصد لبعض ما يفيـده السـؤال مـع ذكـر الشـواهد عليـه ، فـلا يكـاد يسـتثنى مـن ذلـك إلا بعـض التعليقات التى تبين عن إدراك ذلك البعد للسؤال ، نقف منها هنا على تعليقين :

الأول : لأبى هلال العسكرى فى حديثه عن التلطف إذ جعل منه الخـبر والوصـف فـى صـورة الاستفهام ، ولكن إن كان أبو هلال قد وفق فى هذا الملمح فإنه لم يوفق فـى الشـواهد التـى سـاقها عليـه ، لأنه عَرف التلطف بقوله : " هو أن تتلطف للمعنى الحسن حتى تُهجّنه ، وللمعنى الهجين حتى تحسنه " [٨٢] ثم أتى بالشاهد على التلطف غير واف بذلك التقديم الذى قدم بـه عـن مفهوم التلطف عنده ، إذ استشهد بقولـه تعالى : " أليس فى جهنم مثوى للكافرين "[٨٣] وليس هذا السؤال من قبيل التلطف فى شىء ، فالسؤال هنا جاء فى معرض العقاب والتهديد به ، فجاء ذكر جهنم وعيـداً للكافرين ، ولا معنى لأن يقـال فى ذلك تلطف للمعنى الهجين حتى يحسن ، أو تلطف للمعنـى الحسـن فيهجـن ، وكيـف يكـون التحسـين لجهنم التى يتوعد بها الله الكافرين ، وهل الحديث عن الكافرين بحاجة إلى تلطف أو تحسين .

إن إشارة أبى هلال العسكرى النظرية إلى التلطف عبر تركيب السؤال لتدل على إدراك للبعد النفسى الذى يراعى فيه السائل حال المخاطب ، وأصدق مما استشهد به تمثيلاً لما ذهب إليه قوله تعالى حكاية عن العبد الصالح فى سورة الكهف : " ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا " [٨٤] فالعبد الصالح هنا يعلم من بواطن الأمور مالا يعلمه موسى عليه السلام ، وقد سبق تحذيره إياه بنهيه عن السؤال، ومع ذلك يسأل موسى عليه السلام ، فأراد العبد الصالح إخباره وإقراره بأنه حذره من هذا السؤال ونهاه عنه ، مع علمه بأن غرابة مواقفه ستدفعه دفعاً إلى السؤال بدليل إخباره فى مستهل الأمر " إنك لن تستطيع معى صبرا " [٨٥] وقوله محذراً وناهياً " فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكراً " [٨٦] حتى إذا ما سأل موسى ، تلطف إليه العبد الصالح فى إخباره بسابق الإنذار والنهى ، وإقراره بذلك ، فجاء نهيه هنا متلطفاً ، وهو فى تلطفه لا يخلو من عتاب ومؤاخذة .

والآخر : لبعد القاهر فى كتابه " دلائل الإعجاز " إذ يعلق على السؤال الإنكارى بقوله : " واعلم أنا وإن كنا نفسر (الاستفهام) فى مثل هذا بالإنكار ، فإن الذى هو محض المعنى " أنه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعيى بالجواب ، إما لأنه ادعى القدرة على أنه هم بأن يفعل مالا يستصوب فعله ، فإذا روجع فيه تنبه وعرف الخطأ ، وإما لأنه جوّز وجود أمر لا يوجد مثله ، فإذا ثبت على تجويزه قبح على نفسه ، وقيل له : فأرناه فى موضع وفى حال ، وألقم شاهداً على أنه كان فى وقت "[٨٧] ، فقد أوضح عبد القاهر هنا البعد النفسى للسؤال بالإشارة إلى تفاعل المتلقى بالسؤال وخطوات تأثر السؤال بوصفه سؤالاً فحسب ، لا بوصفه سؤالاً يفيد كذا وكذا ، وفى أثناء ذلك تبدو خطوات تفاعل المخاطب مع السؤال فى هذه الدورة التى يأخذها فى نفسه حتى يصل إلى الإقرار .

وعلى الرغم من أهمية إشارة عبد القاهر هنا إلى البعد النفسى للسؤال فإن هذه الإشارة لم تجد صداها عند من تناولوا علم المعانى بشكل عام أو السؤال بصفة خاصة من القدماء والمحدثين ، فوقف عند حدودها من أشار إليها ، ولم يحاول لها تعميقاً ، وبالتالى لم يكن لها أثر فى تحليل التراكيب فى الدرس البلاغى قديماً وحديثاً [٨٨]

ولعل إشارة د. أحمد ماهر البقرى فى كتابه " أساليب النفى فى القرآن " من الإشارات التى تخطت حدود ما قاله عبد القاهر الجرجانى ، ففى رده عن تساؤل طرحه : " لماذا كان النفى الاستفهامى بليغاً ؟ " يشير إلى البعد النفسى بوصفه أحد خصوصيات السؤال التى تميزه عن المألوف من أساليب النفى بقوله : " إن السؤال أقوى فى دلالته النفسية من النفى الخبرى حيث يكون النفى الخبرى أحياناً لتقرير حالة بعيدة عن نفس المتكلم : كأن تقول : فلان لايقرأ ولا يكتب ، فليس النفى هنا مما يضيق به المتكلم ، فحسبه أن يقرر واقعاً ، أما الاستنكار أو النفى الاستفهامى (السؤال) فهو وطيد الصلة بمشاعر المتحدث ، لايصلر منه استنكار إلا بعد أن " يكون بلغ من الضيق مبلغاً " [٨٩] .

ولكن إذا كانت هذه الملاحظة قد تخطت ما وقف البلاغيون عند حدوده من أقوال عبد القاهر ،

فإنها قد جنحت إلى قصر وتعميم ليس لهما ما يبررهما ، فجعلت البعد النفسى مقتصراً على الضيق الذى يبلغ من نفس السائل مبلغه ، مع أن الأبعاد النفسية للسؤال - الذى يعد النفى إحدى دلالاته - كثيرة متشعبة متشابكة مختلطة ، أما التعميم فلكونها جعلت الضيق بعداً نفسياً عاماً فى السؤال الدال على النفى بشكل مطلق ، مع أن العديد من الأسئلة الواردة فى القرآن ليست حكاية عن الخلق ولكنها من الله مباشرة ، فكيف يقال فيها بهذا البعد النفسى الذى ذكره المؤلف ؟ ولنتأمل الشواهد التى ذكرها المؤلف فى معالجة هذه الجزئية لنتبين حقيقة الخلل فى هذا التعميم فقد استشهد بقوله تعالى : " ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها " [٩٠] وبقوله تعالى : " ومن أصدق من الله قيلاً " [٩١] ، وبقوله تعالى : " ومن أحسنُ قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين " [٩٢] .

أضف إلى ذلك عدم الدقة فى اختيار الشواهد ، واعتماده فى بيان ذلك البعد النفسى على عناصر ومعطيات خارج الحدث الألسنى ، فقد استشهد بقوله تعالى : " حكاية عن لوط عليه السلام " أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ؟ بل أنتم قوم عادون " [٩٣] وفى تعليقه على الآيات حدد دلالة السؤال فى أمور ثلاثة :-

١. تقرير حقيقة انشغال الرجال عن أزواجهم بالذكران أمثالهم .

٢. التعبير عن نفسه التى لم تطق أن ترى فعلتهم تلك تشيع فى المجتمع الإنسانى ، ولهذا قال : " إنى لعملكم من القالين " .

٣. الدعوة إلى سلوك السبيل السوى .

ثم علق بقوله : " وهكذا كل استفهام استنكارى يحمل العناصر الثلاثة وقد تزيد ، بينما يقتصر أسلوب النفى عادة على الأول فحسب " [٩٤] والواقع أنه ليس فى السؤال ولا فى تعليقه عليه ما يدل على النفى على الإطلاق ، والدلالة الواضحة المباشرة التى تفهم من السؤال تتحدد فى النهى ، ولا تنفصل دلالة النهى هنا عن الاستنكار ، فهو ينهاهم وينهرهم لأنه ينكر عليهم ذلك الفعل ، ويتضمن السؤال إلى جانب ذلك دلالة التوبيخ والتعنيف ، بالإضافة إلى ما ذكره المؤلف من دلالة على التعبير عن نفسه والدعوة إلى السلوك السوى ، ويحاول المؤلف تبرير دلالة السؤال على النفى بقوله : " ولقد أدخل الاستنكار فى باب النفى على اعتبار أن المتحدث إنما ينفى المستنكر منه أن يكون مما يستوجبه العقل أو الخلق الإنسانى " [٩٥] ، ولكن ما الداعى لمحاولة التأويل لتلاءم دلالة السؤال مع النفى مادامت دلالة النهى واضحة جلية ليست بحاجة إلى مبررات ، يصدق ذلك - فى الغالب - على السؤال الموجه للمخاطب الذى استخدمت الهمزة بعدها فعل مضارع فيه تاء المضارعة الدالة على إسناد الفعل للمخاطب نحو : "

أتامرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب ؟ " [٩٦].

ومما يدل على عدم الدقة فى هذا التعميم الذى أطلقه أنه راح ينقض مقولته تلك فى حديثه عن الاستفهام والانفعال فى فكرة مستقله بعنوان " الانفعال وأسلوب الاستهام " التى ناقش فيها تقسيم أحد الباحثين للاستفهام إلى ثلاثة أنواع " الانفعالى ـ التعليمى ـ الاستخبارى " [٩٧] ، راح ينقض مقولته تلك لا لينفى الضيق الذى قال به آنفاً ، ولكن لينفى الانفعال مطلقا عن السؤال فى العديد من الشواهد التى أوردها الباحث المذكور وبعضها سؤال من الله للخلق ، نحو قوله تعالى " هل جزاء الإحسان إلا الإحسان " [٩٨] ، وبعضها حكاية عن الخلق نحو " قالوا : سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين " [٩٩].

نستخلص من هذه الإشارات ما يلى : ـ

١. التفات أبى هلال العسكرى إلى البعد النفسى لإثبات السؤال على الخبر الصريح فى الدلالة على الخبر وفى ذلك مراعاة للبعد النفسى للسؤال فى بعض استعمالاته التى يتحقق فيها التلطف بين السائل والمسؤول.

٢. التفات عبد القاهر الجرجانى إلى أثر السؤال الذى لا يتوفر للتراكيب الأخرى فى دلالة الإنكار فى نفس المخاطب، وإشارته إلى البعد النفسى للسؤال فى كيفية تفاعله مع نفس المخاطب.

٣. التفات د. محمد أحمد أبو الفرج ود. أحمد ماهر البقرى إلى البعد الانفعالى النفسى عند المخاطب مع الاحتراز من التعميم الذى ورد فى معالجتيهما لهذه القضية.

ولكن هل يقتصر البعد النفسى على هذه الملاحظات ؟

لقد سبقت الإشارة إلى أن السؤال يتمتع بثراء فى الدلالات والإيحاءات تستعصى على التحديد لكثرتها وغزارتها واختلاطها واشتابكها ، وبذلك يتجاوز السؤال كل تحديد ومحاولة تصنيف ، ولعلّى لا أبالغ إذا زعمت أن كل سؤال له خصوصية فى سياقه التى لا تكون لسؤال غيره ، نعم قد تتشابه الأسئلة وتتشابه بعض السياقات بيد أن خصوصية ما تظل تميز كل سؤال فى موضع ما عن الآخر ، وسنعرض لبعض الشواهد على هذا بعد أن نلقى الضوء على البعد النفسى للسؤال بوصفه سؤالاً فحسب لا بوصفه سؤالاً عن كذا أو يفيد كذا .

إن السؤال يثير رد فعل تلقائى عند المتلقى فى محاولة الإجابة ، فالمرء يسأل ليجيب أو ليقف وجهاً لوجه مصطدما بعدم معرفة ما هو مسئول عنه ، أو ليقف مستسلماً مبهوراً أمام ما يحمله عليه السائل من إجابة ولايطلب من المخاطب سوى الإقرار بها ، وأمام ما يطرحه من إجابة قد تعقب السؤال بعد أن أثير باحتجاب هذه الإجابة عنه ولو للحظة خاطفة تتحدد فى فترة قراءة السؤال أو سماعه ، ومن هنا كان السؤال أكثر التراكيب اللغوية الفنية استدعاءً للمثيرات عند المتلقى ، فهو يمارس إثارة الدهشة الناجمة

واعلم أن الهمزة فيما ذكرنا تقرير بفعل قد كان ، وإنكار له لِمَ كان ؟ ، وتوبيخ لفاعله عليه"[٧٠]

ولكن إذا كانت الفكرة التى صدر عنها عبد القاهر من حيث هى صحيحة دقيقة ، فإن ذلك بغض النظر عن تطبيقها الذى أشرنا إليه هنا الآن ، لأنه - مع ذلك - لايفى بدلالات السؤال ، فبقليل من التأمل تجد السؤال هنا يفيد التحقير أيضاً لوضعهم المخاطب إبراهيم عليه السلام موضع مقارنه مع آلهتهم التى يجلونها ويقدسونها تحقيراً لم يطيقوا معه النطق بهذا الفعل فاكتفوا بالإشارة إليه " فعلت هذا " ، والمقارنة هنا مشربة بدلالة التضاد بين أن يَفْعَل هذا الفعل بالآلهة - على زعمهم - وأن يُفْعَل منه هو هذا الفعل ، فالسؤال يضع المخاطب دون الجرأة على القيام بهذا الفعل ، ويضع الآلهة فوق أن يقع عليها مثل هذا الفعل .

والسؤال يشير - إلى جانب ذلك - إلى نبرة تهديد غير خافية ، فما يسألونه ليكافئوه أو يمهلوه أو يتركوه ، وإنما يسألونه ليحلوا به أقصى عقاب ممكن ، إذا ما أقر بأنه فعل ذلك ، وتستطيع أن تلمس التهديد فى السؤال من الإجابة إذا لم تفصل السؤال عن سياقه ، فمع أن إبراهيم - عليه السلام - كان من الجرأة والشجاعة واليقين والثقة بحيث فعل ما فعل ، فإنه لم يقر بالفعل إقراراً صريحاً ، نعم إن الإجابة قد تحمل دلالة السخرية منهم ومن معتقدهم ولكنها سخرية تدفع إلى التفكير والتأمل والتدبر ، فهى إذن جزء لايتجزأ من دعوته إلى ترك عبادة هذه الآلهة ، ولاحتفاظها بمضمون الدعوة ففيها محاولة لإثنائهم عن أن يحلوا به عقاباً على هذا الفعل ، ومن هنا كان إقرار بعض البلاغيين بالتجاوز لحدود المقولات البلاغية التنظيرية ، فقد تنبه سعد الدين التفتازانى إلى أن مرجعية استكناه الدلالة إلى " سلامة الذوق وتتبع التراكيب فلا ينبغى أن تقتصر فى ذلك على معنى سمعته أو مثال وجدته من غير أن تتخطاه ، بل عليك بالتصرف واستعمال الروية والله هو الهادى " [٧١] ليقر بتجاوز التركيب بل العديد من المباحث البلاغية لحدود تنظير البلاغيين وتصنيفاتهم ، وقد أشار أحد المحدثين أيضاً إلى أن " المعانى التى تشير إليها هذه الأدوات ليست محصورة فيما ذكرنا ولا فيما ذكر غيرنا ، وإنما هى متولدات تشيعها السياقات والصيغ ... إن قولنا إن الاستفهام هنا للإنكار أو للاستبعاد أو التقرير أو غيره ليس فى حقيقته تحقيقاً لفقة الدلالة ، وإنما هو إشارة عامة إلى المرمى العام من السياق ، لأن الدلالة ذات مذاق يختلف عن مجرد الإنكار أو الاستبعاد أو غيرهما "[٧٢] لكن هاتين الإشارتين لاتعدوان أن تكونا دليلاً على قصور الدرس البلاغى قديماً وحديثاً عن الوقوف على دلالات هذه التركيب فى معالجاتهم التطبيقية واكتفوا بالقاعدة والشاهد المجتزأ ، ظناً بأنه يمكنهم حصر دلالاته والإحاطة بها .

* * *

كانت الشمس التى تلفحُنا فوق مدارِ السرطان
زهرةً مقرورةً
فوق مدارِ الجدى
ليست هذه الأرض إذن تفّاحةً ،
بل صخرةٌ ثُقلت منا
فى التقاويم التى لم نكتشف إيقاعَها الصعبَ ،
فمن يوقفُ هذا الدوران
ساعةً ،
ندفن ماجلانْ فيها ،
ونشمُّ الريحَ ، هل تحملُ طعمَ الشاطئ الآخر ؟
كم تبعدُ شيلى عن نيويورك ،
وعن موسكو ؟
وكم قبر من الساحل للساحل ؟
كم ميل تُرى بين الكلاشنكوف والأيدى ،
كم يبعدُ مبنى البرلمان
عن سلاح الطيران ! [٧٥]

تناولت الباحثة (هايدى تويل) التى قامت بتحليل القصيدة استعمال (كم) فى أسئلة حجازى على أنها خصوصية للقصيدة أو للشاعر فى ديوان (كائنات مملكة الليل) - كما أشارت - والواقع أن استعمال (كم) الذى أثارته الباحثة مرتبط باستعمالها فى لغة الشعر ارتباطاً أصيلاً حميماً كما أشرنا فى الحديث السابق عن التفريق بين استعمالى (كم) عند النحاة ، ومن ثم لا نقر ما قالته الباحثة : " ... أن الشاعر قد اختار عن قصد استخدام (كم) بمعنييها ، بانياً جملته كما لو كانت تعجباً ، ومقدماً إياها كما لو كانت تساؤلاً ، وهو يشير ، هكذا بوضوح ، إلى أن الأمر لا يتعلق إلا بأسئلة ظاهرة هى فى حقيقة الأمر أجوبة لا يحتاج إلى صياغتها هنا ، ونفضل هذا التأويل للأسئلة المصوغة فى (كائنات مملكة الليل) ، حيث يتلائم مع النص ويتفق مع رؤيتنا له " [٧٦] ، وكأن ذلك ضرب من الخصوصية فى اختيار الشاعر بين بدائل تراكيب ، والواقع أن ذلك إنما هو من خصوصيات التركيب فى استعماله الفنى الذى يتوفر لحجازى ولغيره من الشعراء .

ولا ينفصل البعد النفسى للسؤال (عند المبدع والمتلقى) - من ناحية أخرى - عن الأسلوبية ، فمن بين الاتجاهات الأساسية للأسلوبية دراسة الأسلوب بوصفه " تعبيراً عن شخصية الكاتب/ المرسل " [٧٧] ، ومنها دراسة الأسلوب بوصفه " أثراً فى القارئ / المتلقى ناتجاً عن الخصائص الداخلية للنص : المفهوم التأثرى أو العاطفى للأسلوب " [٧٨] ، وقد أفرزت تلك الملاحظات حول البعد النفسى للأسلوب

إن إشارة أبى هلال العسكرى النظرية إلى التلطف عبر تركيب السؤال لتدل على إدراك للبعد النفسى الذى يراعى فيه السائل حال المخاطب ، وأصدق مما استشهد به تمثيلاً لما ذهب إليه قوله تعالى حكاية عن العبد الصالح فى سورة الكهف : " ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا " [٨٤] فالعبد الصالح هنا يعلم من بواطن الأمور مالا يعلمه موسى عليه السلام ، وقد سبق تحذيره إياه بنهيه عن السؤال، ومع ذلك يسأل موسى عليه السلام ، فأراد العبد الصالح إخباره وإقراره بأنه حذره من هذا السؤال ونهاه عنه ، مع علمه بأن غرابة مواقفه ستدفعه دفعاً إلى السؤال بدليل إخباره فى مستهل الأمر " إنك لن تستطيع معى صبرا " [٨٥] وقوله محذراً وناهياً " فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكراً " [٨٦] حتى إذا ما سأل موسى ، تلطف إليه العبد الصالح فى إخباره بسابق الإنذار والنهى ، وإقراره بذلك ، فجاء نهيه هنا متلطفاً ، وهو فى تلطفه لا يخلو من عتاب ومؤاخذة .

والآخر : لبعد القاهر فى كتابه " دلائل الإعجاز " إذ يعلق على السؤال الإنكارى بقوله : " واعلم أنا وإن كنا نفسر (الاستفهام) فى مثل هذا بالإنكار ، فإن الذى هو محض المعنى " أنه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعيى بالجواب ، إما لأنه ادعى القدرة على أنه هم بأن يفعل مالا يستصوب فعله ، فإذا روجع فيه تنبه وعرف الخطأ ، وإما لأنه جوّز وجود أمر لا يوجد مثله ، فإذا ثبت على تجويزه قبح على نفسه ، وقيل له : فأرناه فى موضع وفى حال ، وألقم شاهداً على أنه كان فى وقت "[٨٧] ، فقد أوضح عبد القاهر هنا البعد النفسى للسؤال بالإشارة إلى تفاعل المتلقى بالسؤال وخطوات تأثر السؤال بوصفه سؤالاً فحسب ، لا بوصفه سؤالاً يفيد كذا وكذا ، وفى أثناء ذلك تبدو خطوات تفاعل المخاطب مع السؤال فى هذه الدورة التى يأخذها فى نفسه حتى يصل إلى الإقرار .

وعلى الرغم من أهمية إشارة عبد القاهر هنا إلى البعد النفسى للسؤال فإن هذه الإشارة لم تجد صداها عند من تناولوا علم المعانى بشكل عام أو السؤال بصفة خاصة من القدماء والمحدثين ، فوقف عند حدودها من أشار إليها ، ولم يحاول لها تعميقاً ، وبالتالى لم يكن لها أثر فى تحليل التراكيب فى الدرس البلاغى قديماً وحديثاً [٨٨]

ولعل إشارة د. أحمد ماهر البقرى فى كتابه " أساليب النفى فى القرآن " من الإشارات التى تخطت حدود ما قاله عبد القاهر الجرجانى ، ففى رده عن تساؤل طرحه : " لماذا كان النفى الاستفهامى بليغاً ؟ " يشير إلى البعد النفسى بوصفه أحد خصوصيات السؤال التى تميزه عن المألوف من أساليب النفى بقوله : " إن السؤال أقوى فى دلالته النفسية من النفى الخبرى حيث يكون النفى الخبرى أحياناً لتقرير حالة بعيدة عن نفس المتكلم : كأن تقول : فلان لايقرأ ولا يكتب ، فليس النفى هنا مما يضيق به المتكلم ، فحسبه أن يقرر واقعاً ، أما الاستنكار أو النفى الاستفهامى (السؤال) فهو وطيد الصلة بمشاعر المتحدث ، لايصلر منه استنكار إلا بعد أن " يكون بلغ من الضيق مبلغاً " [٨٩] .

ولكن إذا كانت هذه الملاحظة قد تخطت ما وقف البلاغيون عند حدوده من أقوال عبد القاهر ،

إن إشارة أبى هلال العسكرى النظرية إلى التلطف عبر تركيب السؤال لتدل على إدراك للبعد النفسى الذى يراعى فيه السائل حال المخاطب ، وأصدق مما استشهد به تمثيلاً لما ذهب إليه قوله تعالى حكاية عن العبد الصالح فى سورة الكهف : " ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا " [٨٤] فالعبد الصالح هنا يعلم من بواطن الأمور مالا يعلمه موسى عليه السلام ، وقد سبق تحذيره إياه بنهيه عن السؤال، ومع ذلك يسأل موسى عليه السلام ، فأراد العبد الصالح إخباره وإقراره بأنه حذره من هذا السؤال ونهاه عنه ، مع علمه بأن غرابة مواقفه ستدفعه دفعاً إلى السؤال بدليل إخباره فى مستهل الأمر " إنك لن تستطيع معى صبرا " [٨٥] وقوله محذراً وناهياً " فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكراً " [٨٦] حتى إذا ما سأل موسى ، تلطف إليه العبد الصالح فى إخباره بسابق الإنذار والنهى ، وإقراره بذلك ، فجاء نهيه هنا متلطفاً ، وهو فى تلطفه لا يخلو من عتاب ومؤاخذة .

والآخر : لبعد القاهر فى كتابه " دلائل الإعجاز " إذ يعلق على السؤال الإنكارى بقوله : " واعلم أنا وإن كنا نفسر (الاستفهام) فى مثل هذا بالإنكار ، فإن الذى هو محض المعنى " أنه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعيى بالجواب ، إما لأنه ادعى القدرة على أنه هم بأن يفعل مالا يستصوب فعله ، فإذا روجع فيه تنبه وعرف الخطأ ، وإما لأنه جوّز وجود أمر لا يوجد مثله ، فإذا ثبت على تجويزه قبح على نفسه ، وقيل له : فأرناه فى موضع وفى حال ، وألقم شاهداً على أنه كان فى وقت "[٨٧] ، فقد أوضح عبد القاهر هنا البعد النفسى للسؤال بالإشارة إلى تفاعل المتلقى بالسؤال وخطوات تأثر السؤال بوصفه سؤالاً فحسب ، لا بوصفه سؤالاً يفيد كذا وكذا ، وفى أثناء ذلك تبدو خطوات تفاعل المخاطب مع السؤال فى هذه الدورة التى يأخذها فى نفسه حتى يصل إلى الإقرار .

وعلى الرغم من أهمية إشارة عبد القاهر هنا إلى البعد النفسى للسؤال فإن هذه الإشارة لم تجد صداها عند من تناولوا علم المعانى بشكل عام أو السؤال بصفة خاصة من القدماء والمحدثين ، فوقف عند حدودها من أشار إليها ، ولم يحاول لها تعميقاً ، وبالتالى لم يكن لها أثر فى تحليل التراكيب فى الدرس البلاغى قديماً وحديثاً [٨٨]

ولعل إشارة د. أحمد ماهر البقرى فى كتابه " أساليب النفى فى القرآن " من الإشارات التى تخطت حدود ما قاله عبد القاهر الجرجانى ، ففى رده عن تساؤل طرحه : " لماذا كان النفى الاستفهامى بليغاً ؟ " يشير إلى البعد النفسى بوصفه أحد خصوصيات السؤال التى تميزه عن المألوف من أساليب النفى بقوله : " إن السؤال أقوى فى دلالته النفسية من النفى الخبرى حيث يكون النفى الخبرى أحياناً لتقرير حالة بعيدة عن نفس المتكلم : كأن تقول : فلان لايقرأ ولا يكتب ، فليس النفى هنا مما يضيق به المتكلم ، فحسبه أن يقرر واقعاً ، أما الاستنكار أو النفى الاستفهامى (السؤال) فهو وطيد الصلة بمشاعر المتحدث ، لايصلر منه استنكار إلا بعد أن " يكون بلغ من الضيق مبلغاً " [٨٩] .

ولكن إذا كانت هذه الملاحظة قد تخطت ما وقف البلاغيون عند حدوده من أقوال عبد القاهر ،

أتامرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب ؟ " [٩٦].

ومما يدل على عدم الدقة فى هذا التعميم الذى أطلقه أنه راح ينقض مقولته تلك فى حديثه عن الاستفهام والانفعال فى فكرة مستقله بعنوان " الانفعال وأسلوب الاستهام " التى ناقش فيها تقسيم أحد الباحثين للاستفهام إلى ثلاثة أنواع " الانفعالى ـ التعليمى ـ الاستخبارى " [٩٧] ، راح ينقض مقولته تلك لا لينفى الضيق الذى قال به آنفاً ، ولكن لينفى الانفعال مطلقا عن السؤال فى العديد من الشواهد التى أوردها الباحث المذكور وبعضها سؤال من الله للخلق ، نحو قوله تعالى " هل جزاء الإحسان إلا الإحسان " [٩٨] ، وبعضها حكاية عن الخلق نحو " قالوا : سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين " [٩٩].

نستخلص من هذه الإشارات ما يلى : ـ

١. التفات أبى هلال العسكرى إلى البعد النفسى لإثبات السؤال على الخبر الصريح فى الدلالة على الخبر وفى ذلك مراعاة للبعد النفسى للسؤال فى بعض استعمالاته التى يتحقق فيها التلطف بين السائل والمسؤول.

٢. التفات عبد القاهر الجرجانى إلى أثر السؤال الذى لا يتوفر للتراكيب الأخرى فى دلالة الإنكار فى نفس المخاطب، وإشارته إلى البعد النفسى للسؤال فى كيفية تفاعله مع نفس المخاطب.

٣. التفات د. محمد أحمد أبو الفرج ود. أحمد ماهر البقرى إلى البعد الانفعالى النفسى عند المخاطب مع الاحتراز من التعميم الذى ورد فى معالجتيهما لهذه القضية.

ولكن هل يقتصر البعد النفسى على هذه الملاحظات ؟

لقد سبقت الإشارة إلى أن السؤال يتمتع بثراء فى الدلالات والإيحاءات تستعصى على التحديد لكثرتها وغزارتها واختلاطها واشتابكها ، وبذلك يتجاوز السؤال كل تحديد ومحاولة تصنيف ، ولعلّى لا أبالغ إذا زعمت أن كل سؤال له خصوصية فى سياقه التى لا تكون لسؤال غيره ، نعم قد تتشابه الأسئلة وتتشابه بعض السياقات بيد أن خصوصية ما تظل تميز كل سؤال فى موضع ما عن الآخر ، وسنعرض لبعض الشواهد على هذا بعد أن نلقى الضوء على البعد النفسى للسؤال بوصفه سؤالاً فحسب لا بوصفه سؤالاً عن كذا أو يفيد كذا .

إن السؤال يثير رد فعل تلقائى عند المتلقى فى محاولة الإجابة ، فالمرء يسأل ليجيب أو ليقف وجهاً لوجه مصطدما بعدم معرفة ما هو مسئول عنه ، أو ليقف مستسلماً مبهوراً أمام ما يحمله عليه السائل من إجابة ولايطلب من المخاطب سوى الإقرار بها ، وأمام ما يطرحه من إجابة قد تعقب السؤال بعد أن أثير باحتجاب هذه الإجابة عنه ولو للحظة خاطفة تتحدد فى فترة قراءة السؤال أو سماعه ، ومن هنا كان السؤال أكثر التراكيب اللغوية الفنية استدعاءً للمثيرات عند المتلقى ، فهو يمارس إثارة الدهشة الناجمة

عن قطع رتابة التلقي المستكين ، ورضوخ المتلقي لخمول وطأة (استقبال) التراكيب الجاهزة ، ويمارس فعل المفاجأة التي تنتهك جمود التوقع لتنشأ جدلية حيوية حركية بين المبدع والمتلقي عبر تركيب السؤال ، ذلك الذي يجعل المتلقي فاعلاً أصيلاً في التجربة الابداعية بما تتضمنة من جدلية لاتزول بين المبدع والمتلقي ، فإذا كان المنوط بالعمل الفني انتهاك رتابة الألفة بالكشف عن رؤى جديدة مهما اختلفت أسباب الصياغة ، والسير بالمتلقي في عالم جديد من الرؤى والعلاقات ، فإن أقصى درجات التماشج بين أطراف الدائرة (المبدع ـ المتلقي ـ العمل الفني) تتحقق حين يوضع المتلقي أمام سؤال لاشك في اختلافه عن الأساليب التقريرية الإخبارية ـ من ناحية ـ أو الأساليب التصويرية البيانية ـ من ناحية أخرى ـ لأن تلك الأخيرة لاتختلف عن سابقتها في كونها تراكيب جاهزة مهما كانت جدتها وطرافتها ومهما توفر لها من القدرة على الخلق والابتكار. فإنها تمنح المتلقي شيئاً في بؤرة الخلق ولكن دون أن تضعه هو بذاته في هذا الشئ أو في مواجهته .

إن السؤال – في تجاوزه المبدع إلى المتلقي – لا يكشف – فقط – عن رؤى المبدع وموقفه من الأشياء ، ولكنه يحمل المتلقي على رؤى ، فما عداه من التراكيب تصل

إلى المتلقي بدلالاتها جاهزة ، أو قل بدلالة مغلقة ، أما السؤال فيصل بدلالة ناقصة ، وإنما يأتي اكتمالها على لسان المتلقي أو في ذهنه ، ولكن ليس المقصود بالنقص نقصاً حقيقياً ، فهو نقص في الوجود اللغوي فقط لأنه قائم على مستوى الدلالة ، إن ذلك المعنى المفهوم وراء خاصية التركيب أقوى وجوداً من المعنى القائم في الوجود اللغوي نفسه ، لأن ذلك الأخير ينشأ ـ مطلقاً ـ من المبدع ، أما المعنى الكائن في خاصية التركيب فالمتلقي محمول بقوة الخاصية على الإقرار به ، وكأنه هنا شريك في انتاج دلالته ، ومن ثم تقوى عوامل الالتحام والتواصل بين المرسل والمستقبل ، ولا مرد لذلك سوى خصوصية خاصية تركيب السؤال.

فإذا كانت البلاغة ـ في أحد مفاهيمها في التراث ـ أن يتمكن المعنى في نفس المتلقي كتمكنه في نفس المبدع فلا شك أن درجة عالية من التمكن ـ لا للمعنى فقط بحسب المفهوم البلاغي القديم ، ولكن ـ للمعنى ملتبساً بحرارة الموقف الانفعالي الذي ولد فيه تنتج عن استخدام صيغة الاستفهام ، ومن هنا نقول بقلة جدوى اقتصار النظرة إلى السؤال على كونه مجرد نوع من الأساليب الإنشائية ـ على حد تعبير البلاغيين العرب ـ لأن محاولة استكشاف البعد النفسي لتركيب السؤال أجدى في مقاربة النص وأكثر إثراء لعملية النقد إذ لا تقف به عند حدود النص ـ بوصفه مادة لغوية ـ لتتجاوز ذلك بالبحث عن كنه التركيب وعلة فاعليتها .

إن أقصى درجات التوتر قد لاتدع للمبدع فرصة لتجسيد لغوي في عمل فني ، فالانفعال الحاد قد يعقد اللسان فتتشابك الأحاسيس في اختلاط واضطراب ، ومن هنا يبين الاتكاء على السؤال عن حدة الموقف وحرارته التي قد تصل بالشاعر إلى حد الانهيار ، فجوهر السؤال لا ينكشف بالنظر إليه على أنه مجرد تركيب له فاعليته فحسب ، بل لأنه يلفت إلى نوع من عجز المبدع عن إعداد التراكيب الجاهزة ،

مهما يكن نوعها في بعض مواضع استعمال تركيب السؤال ، أو لأن هذه التراكيب الجاهزة تقف عاجزة عن تحقيق ما يمكن أن يحققه السؤال في بعض مواضع الاستعمال الأخرى ، وبذلك يصبح ذلك العجز دالا بذاته ، لأنه ليس عجزاً بمعنى الخور والضعف وعدم القدرة بقدر ما هو تجسيد للعجز

في كيان لغوى دال بذاته ، أى بوصفه هذا الكيان أو التركيب اللغوى بالتحديد ، ومما ينضاف إلى ذلك من ملابسات تخلق التركيب وعناصره اللغوية المختلفة وصيغه الصرفية وسياقه ، أضف إلى ذلك اعتبار طرفى الخطاب فى السؤال ، ولنتأمل بعض نماذج السؤال فى الخطاب الشعرى على هدى من هذه الملاحظات :

يأخذ السؤال شكلاً مكثفاً فى بيتى أبى فراس الحمدانى :

تُسائِلُنى من أنتَ ؟ وهىَ عليمـــــــةٌ
وهـــلْ فتىً مثلى علـــى حالِهِ نُكْـــرُ ؟

فقلتُ كما شاءتْ ، وشاءَ لها الهوى
قتيلُكِ ، قالتْ : أَيهمْ ؟ فهـــمْ كُثْـــرُ (١٠٠)

فالمبدع هنا (المرسل) هو الذى يوجه إليه السؤال على لسان المستقبل فى أصل تكون الحوار . والسائلة - فى ملاحقتها إياه بالسؤال - تطارده بدلالات التجاهل يبدو ذلك للوهلة الأولى فى استعماله الفعل المضارع (تسائلنى) الذى يدل على استمرار السؤال من قبلها ، وهو يحاول بالسؤال مواجهة السؤال ، بيد أنها مواجهة خانعة لأنه ينعطف بها على نفسه أكثر من توجهه بها إليها ، ليتجسد أمامنا - بالسؤال - أقصى درجات الترفع والتجاهل والتنكر فى مقابل أقصى درجات التهالك والتطلب .

فعندما لا يجديه رد السؤال بسؤال ، وهو الطالب الساعى المتلمس لوصلها ، يرضخ إلى الإجابة الخبرية المباشرة قائلاً : قتيلك ، ويؤكد هذا الرضوخ والتهالك أنها عليمة بتلك الإجابة ، وأن هذه الإجابة إنما جاءت نزولاً على مشيئتها ومشيئة الهوى لها بالتحكم الذى أوقفه موقف الخنوع والرضوخ ، ولكن هذه الإجابة الخبرية القاطعة لا تجدى معها أيضاً ؛ فهـــى ممعنة فى تعاليها مسرفة فى تجاهله ، لذا تصدمه مرة أخرى بالسؤال : " أيهم " وتؤكد على ذلك بالخبر الصريح " فهم كثر " لتجعله رقماً مهملاً فى كم هائل من طالبيها والمتهالكين دون أعتابها .

ولكن البيتين ينتقلان إلى مستوى آخر من الدلالة بانتقالهما إلى مستوى آخر من الخطاب ، فالبيتان بما يحملان من خطاب داخلى بين الشاعر وصاحبته يمثلان - فى الوقت نفسه - خطاباً آخر للمتلقى الذى يقف - بأدواته وثقافته - على تمثل حال الشاعر من خلال استنطاق هذه الأدوات التأثيرية التى اعتمد عليها الشاعر فى البيتين ، والتى كان للسؤال الحضور الأكبر فيها .

ويمثل السؤال عند المتنبى اصطداماً عنيفاً بواقع يعانده ويجافيه فى الأبيات اللصيقة بذاته ، فيتجسد هذا الاصطدام فى دلالات التهالك والضعف التى ينقلها السؤال للمتلقى ، والتى يختلف

إن إشارة أبى هلال العسكرى النظرية إلى التلطف عبر تركيب السؤال لتدل على إدراك للبعد النفسى الذى يراعى فيه السائل حال المخاطب ، وأصدق مما استشهد به تمثيلاً لما ذهب إليه قوله تعالى حكاية عن العبد الصالح فى سورة الكهف : " ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا " [٨٤] فالعبد الصالح هنا يعلم من بواطن الأمور مالا يعلمه موسى عليه السلام ، وقد سبق تحذيره إياه بنهيه عن السؤال، ومع ذلك يسأل موسى عليه السلام ، فأراد العبد الصالح إخباره وإقراره بأنه حذره من هذا السؤال ونهاه عنه ، مع علمه بأن غرابة مواقفه ستدفعه دفعاً إلى السؤال بدليل إخباره فى مستهل الأمر " إنك لن تستطيع معى صبرا " [٨٥] وقوله محذراً وناهياً " فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكراً " [٨٦] حتى إذا ما سأل موسى ، تلطف إليه العبد الصالح فى إخباره بسابق الإنذار والنهى ، وإقراره بذلك ، فجاء نهيه هنا متلطفاً ، وهو فى تلطفه لا يخلو من عتاب ومؤاخذة .

والآخر : لبعد القاهر فى كتابه " دلائل الإعجاز " إذ يعلق على السؤال الإنكارى بقوله : " واعلم أنا وإن كنا نفسر (الاستفهام) فى مثل هذا بالإنكار ، فإن الذى هو محض المعنى " أنه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعيى بالجواب ، إما لأنه ادعى القدرة على أنه هم بأن يفعل مالا يستصوب فعله ، فإذا روجع فيه تنبه وعرف الخطأ ، وإما لأنه جوّز وجود أمر لا يوجد مثله ، فإذا ثبت على تجويزه قبح على نفسه ، وقيل له : فأرناه فى موضع وفى حال ، وألقم شاهداً على أنه كان فى وقت "[٨٧] ، فقد أوضح عبد القاهر هنا البعد النفسى للسؤال بالإشارة إلى تفاعل المتلقى بالسؤال وخطوات تأثر السؤال بوصفه سؤالاً فحسب ، لا بوصفه سؤالاً يفيد كذا وكذا ، وفى أثناء ذلك تبدو خطوات تفاعل المخاطب مع السؤال فى هذه الدورة التى يأخذها فى نفسه حتى يصل إلى الإقرار .

وعلى الرغم من أهمية إشارة عبد القاهر هنا إلى البعد النفسى للسؤال فإن هذه الإشارة لم تجد صداها عند من تناولوا علم المعانى بشكل عام أو السؤال بصفة خاصة من القدماء والمحدثين ، فوقف عند حدودها من أشار إليها ، ولم يحاول لها تعميقاً ، وبالتالى لم يكن لها أثر فى تحليل التراكيب فى الدرس البلاغى قديماً وحديثاً [٨٨]

ولعل إشارة د. أحمد ماهر البقرى فى كتابه " أساليب النفى فى القرآن " من الإشارات التى تخطت حدود ما قاله عبد القاهر الجرجانى ، ففى رده عن تساؤل طرحه : " لماذا كان النفى الاستفهامى بليغاً ؟ " يشير إلى البعد النفسى بوصفه أحد خصوصيات السؤال التى تميزه عن المألوف من أساليب النفى بقوله : " إن السؤال أقوى فى دلالته النفسية من النفى الخبرى حيث يكون النفى الخبرى أحياناً لتقرير حالة بعيدة عن نفس المتكلم : كأن تقول : فلان لايقرأ ولا يكتب ، فليس النفى هنا مما يضيق به المتكلم ، فحسبه أن يقرر واقعاً ، أما الاستنكار أو النفى الاستفهامى (السؤال) فهو وطيد الصلة بمشاعر المتحدث ، لايصلر منه استنكار إلا بعد أن " يكون بلغ من الضيق مبلغاً " [٨٩] .

ولكن إذا كانت هذه الملاحظة قد تخطت ما وقف البلاغيون عند حدوده من أقوال عبد القاهر ،

أتامرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب ؟ " [٩٦].

ومما يدل على عدم الدقة فى هذا التعميم الذى أطلقه أنه راح ينقض مقولته تلك فى حديثه عن الاستفهام والانفعال فى فكرة مستقله بعنوان " الانفعال وأسلوب الاستهام " التى ناقش فيها تقسيم أحد الباحثين للاستفهام إلى ثلاثة أنواع " الانفعالى ـ التعليمى ـ الاستخبارى " [٩٧] ، راح ينقض مقولته تلك لا لينفى الضيق الذى قال به آنفاً ، ولكن لينفى الانفعال مطلقا عن السؤال فى العديد من الشواهد التى أوردها الباحث المذكور وبعضها سؤال من الله للخلق ، نحو قوله تعالى " هل جزاء الإحسان إلا الإحسان " [٩٨] ، وبعضها حكاية عن الخلق نحو " قالوا : سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين " [٩٩].

نستخلص من هذه الإشارات ما يلى : ـ

١. التفات أبى هلال العسكرى إلى البعد النفسى لإثبات السؤال على الخبر الصريح فى الدلالة على الخبر وفى ذلك مراعاة للبعد النفسى للسؤال فى بعض استعمالاته التى يتحقق فيها التلطف بين السائل والمسؤول.

٢. التفات عبد القاهر الجرجانى إلى أثر السؤال الذى لا يتوفر للتراكيب الأخرى فى دلالة الإنكار فى نفس المخاطب، وإشارته إلى البعد النفسى للسؤال فى كيفية تفاعله مع نفس المخاطب.

٣. التفات د. محمد أحمد أبو الفرج ود. أحمد ماهر البقرى إلى البعد الانفعالى النفسى عند المخاطب مع الاحتراز من التعميم الذى ورد فى معالجتيهما لهذه القضية.

ولكن هل يقتصر البعد النفسى على هذه الملاحظات ؟

لقد سبقت الإشارة إلى أن السؤال يتمتع بثراء فى الدلالات والإيحاءات تستعصى على التحديد لكثرتها وغزارتها واختلاطها واشتابكها ، وبذلك يتجاوز السؤال كل تحديد ومحاولة تصنيف ، ولعلّى لا أبالغ إذا زعمت أن كل سؤال له خصوصية فى سياقه التى لا تكون لسؤال غيره ، نعم قد تتشابه الأسئلة وتتشابه بعض السياقات بيد أن خصوصية ما تظل تميز كل سؤال فى موضع ما عن الآخر ، وسنعرض لبعض الشواهد على هذا بعد أن نلقى الضوء على البعد النفسى للسؤال بوصفه سؤالاً فحسب لا بوصفه سؤالاً عن كذا أو يفيد كذا .

إن السؤال يثير رد فعل تلقائى عند المتلقى فى محاولة الإجابة ، فالمرء يسأل ليجيب أو ليقف وجهاً لوجه مصطدما بعدم معرفة ما هو مسئول عنه ، أو ليقف مستسلماً مبهوراً أمام ما يحمله عليه السائل من إجابة ولايطلب من المخاطب سوى الإقرار بها ، وأمام ما يطرحه من إجابة قد تعقب السؤال بعد أن أثير باحتجاب هذه الإجابة عنه ولو للحظة خاطفة تتحدد فى فترة قراءة السؤال أو سماعه ، ومن هنا كان السؤال أكثر التراكيب اللغوية الفنية استدعاءً للمثيرات عند المتلقى ، فهو يمارس إثارة الدهشة الناجمة

عن قطع رتابة التلقي المستكين ، ورضوخ المتلقي لخمول وطأة (استقبال) التراكيب الجاهزة ، ويمارس فعل المفاجأة التي تنتهك جمود التوقع لتنشأ جدلية حيوية حركية بين المبدع والمتلقي عبر تركيب السؤال ، ذلك الذي يجعل المتلقي فاعلاً أصيلاً في التجربة الابداعية بما تتضمنة من جدلية لاتزول بين المبدع والمتلقي ، فإذا كان المنوط بالعمل الفني انتهاك رتابة الألفة بالكشف عن رؤى جديدة مهما اختلفت أسباب الصياغة ، والسير بالمتلقي في عالم جديد من الرؤى والعلاقات ، فإن أقصى درجات التماشج بين أطراف الدائرة (المبدع ـ المتلقي ـ العمل الفني) تتحقق حين يوضع المتلقي أمام سؤال لاشك في اختلافه عن الأساليب التقريرية الإخبارية ـ من ناحية ـ أو الأساليب التصويرية البيانية ـ من ناحية أخرى ـ لأن تلك الأخيرة لاتختلف عن سابقتها في كونها تراكيب جاهزة مهما كانت جدتها وطرافتها ومهما توفر لها من القدرة على الخلق والابتكار. فإنها تمنح المتلقي شيئاً في بؤرة الخلق ولكن دون أن تضعه هو بذاته في هذا الشئ أو في مواجهته .

إن السؤال – في تجاوزه المبدع إلى المتلقي – لا يكشف – فقط – عن رؤى المبدع وموقفه من الأشياء ، ولكنه يحمل المتلقي على رؤى ، فما عداه من التراكيب تصل

إلى المتلقي بدلالاتها جاهزة ، أو قل بدلالة مغلقة ، أما السؤال فيصل بدلالة ناقصة ، وإنما يأتي اكتمالها على لسان المتلقي أو في ذهنه ، ولكن ليس المقصود بالنقص نقصاً حقيقياً ، فهو نقص في الوجود اللغوي فقط لأنه قائم على مستوى الدلالة ، إن ذلك المعنى المفهوم وراء خاصية التركيب أقوى وجوداً من المعنى القائم في الوجود اللغوي نفسه ، لأن ذلك الأخير ينشأ ـ مطلقاً ـ من المبدع ، أما المعنى الكائن في خاصية التركيب فالمتلقي محمول بقوة الخاصية على الإقرار به ، وكأنه هنا شريك في انتاج دلالته ، ومن ثم تقوى عوامل الالتحام والتواصل بين المرسل والمستقبل ، ولا مرد لذلك سوى خصوصية خاصية تركيب السؤال.

فإذا كانت البلاغة ـ في أحد مفاهيمها في التراث ـ أن يتمكن المعنى في نفس المتلقي كتمكنه في نفس المبدع فلا شك أن درجة عالية من التمكن ـ لا للمعنى فقط بحسب المفهوم البلاغي القديم ، ولكن ـ للمعنى ملتبساً بحرارة الموقف الانفعالي الذي ولد فيه تنتج عن استخدام صيغة الاستفهام ، ومن هنا نقول بقلة جدوى اقتصار النظرة إلى السؤال على كونه مجرد نوع من الأساليب الإنشائية ـ على حد تعبير البلاغيين العرب ـ لأن محاولة استكشاف البعد النفسي لتركيب السؤال أجدى في مقاربة النص وأكثر إثراء لعملية النقد إذ لا تقف به عند حدود النص ـ بوصفه مادة لغوية ـ لتتجاوز ذلك بالبحث عن كنه التركيب وعلة فاعليتها .

إن أقصى درجات التوتر قد لاتدع للمبدع فرصة لتجسيد لغوي في عمل فني ، فالانفعال الحاد قد يعقد اللسان فتتشابك الأحاسيس في اختلاط واضطراب ، ومن هنا يبين الاتكاء على السؤال عن حدة الموقف وحرارته التي قد تصل بالشاعر إلى حد الانهيار ، فجوهر السؤال لا ينكشف بالنظر إليه على أنه مجرد تركيب له فاعليته فحسب ، بل لأنه يلفت إلى نوع من عجز المبدع عن إعداد التراكيب الجاهزة ،

مهما يكن نوعها فى بعض مواضع استعمال تركيب السؤال ، أو لأن هذه التراكيب الجاهزة تقف عاجزة عن تحقيق ما يمكن أن يحققه السؤال فى بعض مواضع الاستعمال الأخرى ، وبذلك يصبح ذلك العجز دالا بذاته ، لأنه ليس عجزاً بمعنى الخور والضعف وعدم القدرة بقدر ما هو تجسيد للعجز

فى كيان لغوى دال بذاته ، أى بوصفه هذا الكيان أو التركيب اللغوى بالتحديد ، ومما ينضاف إلى ذلك من ملابسات تخلق التركيب وعناصره اللغوية المختلفة وصيغه الصرفية وسياقه ، أضف إلى ذلك اعتبار طرفى الخطاب فى السؤال ، ولنتأمل بعض نماذج السؤال فى الخطاب الشعرى على هدى من هذه الملاحظات :

يأخذ السؤال شكلاً مكثفاً فى بيتى أبى فراس الحمدانى :

تُسائِلُنى من أنتَ ؟ وهى عليمـــــةٌ
وهـــلْ فتىً مثلى علــى حالِهِ نُكْـــرُ ؟

فقلتُ كما شاءتْ ، وشاءَ لها الهوى
قتيلُكِ ، قالتْ : أيهمْ ؟ فهـــمْ كُثْــرُ (١٠٠)

فالمبدع هنا (المرسل) هو الذى يوجه إليه السؤال على لسان المستقبل فى أصل تكون الحوار . والسائلة - فى ملاحقتها إياه بالسؤال - تطارده بدلالات التجاهل يبدو ذلك للوهلة الأولى فى استعماله الفعل المضارع (تسائلنى) الذى يدل على استمرار السؤال من قبلها ، وهو يحاول بالسؤال مواجهة السؤال ، بيد أنها مواجهة خانعة لأنه ينعطف بها على نفسه أكثر من توجهه بها إليها ، ليتجسد أمامنا - بالسؤال - أقصى درجات الترفع والتجاهل والتنكر فى مقابل أقصى درجات التهالك والتطلب .

فعندما لا يجديه رد السؤال بسؤال ، وهو الطالب الساعى المتلمس لوصلها ، يرضخ إلى الإجابة الخبرية المباشرة قائلاً : قتيلك ، ويؤكد هذا الرضوخ والتهالك أنها عليمة بتلك الإجابة ، وأن هذه الإجابة إنما جاءت نزولاً على مشيئتها ومشيئة الهوى لها بالتحكم الذى أوقفه موقف الخنوع والرضوخ ، ولكن هذه الإجابة الخبرية القاطعة لا تجدى معها أيضاً ؛ فهـــى ممعنة فى تعاليها مسرفة فى تجاهله ، لذا تصدمه مرة أخرى بالسؤال : " أيهم " وتؤكد على ذلك بالخبر الصريح " فهم كثر " لتجعله رقماً مهملاً فى كم هائل من طالبيها والمتهالكين دون أعتابها .

ولكن البيتين ينتقلان إلى مستوى آخر من الدلالة بانتقالهما إلى مستوى آخر من الخطاب ، فالبيتان بما يحملان من خطاب داخلى بين الشاعر وصاحبته يمثلان - فى الوقت نفسه - خطاباً آخر للمتلقى الذى يقف - بأدواته وثقافته - على تمثل حال الشاعر من خلال استنطاق هذه الأدوات التأثيرية التى اعتمد عليها الشاعر فى البيتين ، والتى كان للسؤال الحضور الأكبر فيها .

ويمثل السؤال عند المتنبى اصطداماً عنيفاً بواقع يعانده ويجافيه فى الأبيات اللصيقة بذاته ، فيتجسد هذا الاصطدام فى دلالات التهالك والضعف التى ينقلها السؤال للمتلقى ، والتى يختلف

الطرف الآخر (المستقبل) فيها باختلاف المواقف ، ففى رثاء جدته يوجه إليها الخطاب بقوله :

هَبِينى أخذتُ الثأرَ فيــكِ من العِدا

فكيفَ بأخذِ الثَّأرِ فيكِ من الحُمّى ؟[١٠١]

فالشاعر هنا يدخل فى مواجهتين عنيفتين ، ويرجع عنفهما إلى الصعوبة والاستحالة ، فالمواجهة الأولى مع العدا ، ولكن من هم هؤلاء العدا ؟ إنهم الناس الذين يتوجس منهم المتنبى دائماً ، لأنه يستشعر منهم الغدر والحسد بصفة دائمة ، وبذلك تبدو صعوبة هذه المواجهة ، ولكنها مع صعوبتها ممكنة ولذلك افترض الشاعر إمكانها بقوله : " هبينى أخذت الثأر فيك من العدا " ، أما المواجهة الثانية فهى ضرب من المحال ؛ لأنها مواجهة مع ذلك المرض الذى فتك بجدته ، واستحالة هذه المواجهة تحدث ذلك الاصطدام العنيف مع الشاعر والواقع ، وبذلك جاء السؤال " فكيف بأخذ الثأر فيك من الحمى ؟ " موضحاً موقف العنف النفسى الذى ينتاب الشاعر لاستحالة المواجهة ، وإذا أضفنا إلى ذلك الأخذ فى الاعتبار أن الطرف الآخر فى الخطاب (المستقبل) هو جدته المرثية ، أدركنا بذلك عنصراً آخر يؤكد الاستحالة التى تكشف - من جانب آخر - عن مدى الضيق والكبت الذى يعانيه الشاعر فى هذا الموقف .

وفى مظهر آخر من مظاهر الاصطدام بواقع اجتماعى مجافٍ للشاعر يكشف دلالة عناد الأيام وانتفاء الألفة مع من حوله يقول :

أما تغلطُ الأيامُ فىّ بأنْ أرى عدواً تُنائى أو حبيباً تُقَرّبُ[١٠٢]

فالسؤال هنا كشف عن حالة ليس موجهاً إلى أحد ، إنه سؤال فى المطلق لا نستطيع تحديد الطرف الآخر من الخطاب فيه ، فهو بذلك إعلان عن الرفض لهذا الواقع المعاند المجافى ، ولاشك أنه بعد ذلك دال على مدى ما يعانيه الشاعر من قسوة المواجهة وعنف الاصطدام.

وفى نبرة تهكمية يتوجه الشاعر بالخطاب إلى (الحُمّى) التى أصابته فى مصر بقوله :

أبنتَ الدهــــــرِ عندى كلُّ بنتٍ فكيفَ وصلتِ أنتِ من الزّحام ؟[١٠٣]

فوضع الشاعر همومه العديدة فى صياغة مجازية تهكمية تحمل فى طيها سخرية مريرة ، يؤكد ذلك اعتبار طرفى الخطاب ، ذلك الذى يؤكد بدوره على مدى الألم النفسى الذى تضيق به نفس الشاعر لكثرة الهموم والنوائب المتكالبة عليه ، فالسؤال فى هذه الحالات جميعها شديد الصلة بذات الشاعر ، فما كان أقرب جدته إلى نفسه ، الأمر الذى حمله على ذكر الثأر على الرغم من خلو الموقف من فكرة الثأر تماماً ، وما كان أقرب الهدف الذى سعى إليه يحدوه طموحه ورغبته الجامحة إلى نفسه ، ولكن الأيام لا تنيله ذلك ، فضلاً عن صنها بتقريب من يحب وإبعاد من يكره ، الأمر الذى جعله فى مواجهة معها ، فإن خروجها عن ذلك شذوذ عن قاعدة رتيبة كأنها الصواب الذى اعتادته معه ، وبذلك اكتنز السؤال

بدلالات الترقب واللهفة لغلطها وخروجها عن رتابة موقفها ، ويضع الشاعر فى البيت الأخير نفسه هدفا لملمات الدهر ونوائبه ، فهى جميعها عنده مقيمة لا تفارقه ، وهو يرى منها ومن نفسه ما كشف عنه فى السؤال الذى يبين مدى الضجر الذى يسيطر على نفسه ، وذلك كله يجتمع فى نهاية الأمر على تكثيف دلالة العجز فى مواجهة هذه المواقف العنيفة القاسية .

ومع ذلك يظل هذا القول غير مطلق ، فليس السؤال دائماً دالاً على العجز أو كاشفاً عن عجز فقط ، فإن تركيبة لافتة تبرز فى بعض تكوينات السؤال ؛ لتجاوزه ذلك الذى أشرنا إليه من قبل ، وتبدو غرابتها فى إتيان السؤال فيها متبوعاً بالإجابة ، ويبدو الموقف أمام هذه التراكيب أكثر إدهاشاً عندما تكون الإجابة ليست مجرد اقتراح أو احتمال أو إجابة مشكوك فيها ، بل تأتى قاطعة صارمة إذ لا يحتمل السؤال سوى تلك الإجابة الوحيدة التى ينطق بها النص ، مثال ذلك قول الشاعر أمل دنقل :

آه ، من سوف يرفع فى غد هامته غير من طأطأوا حين أز الرصاص ؟
ومن سوف يؤى الأرامل غير من سيؤول إليه خراج المدينة ؟ (١٠٤)

فالسؤال هنا عن العاقل ، إذ استعمل الشاعر فيه (من) التى يطلب بها التصور ، ولكن الشاعر لايلبث أن يقوم بتعيين المطلوب ، فالسؤال هنا ليس اصطداماً بما يعجز الشاعر عن الإجابة عنه ، ولكنه مع ذلك لا ينفصل عن دلالة العجز ، ومصدر العجز هنا يتضح من الاعتراض الضمنى الذى تحمله علاقة التضاد التى تكونت منها بنية السؤال بين (يرفع ـ طأطأوا) ، فهو يقف على الإجابة ويوقف المتلقى عليها ، ثم يتجاوز ذلك إلى حمل المخاطب على رفض الواقع بوضعه وجها لوجه أمام التناقض الذى يسلم إسلاماً تلقائياً إلى الرفض ، إن دلالة العجز هنا كامنة فى رفض الشاعر لواقع لا مناص من الاعتراف به ، ولا حيلة له سوى الإعلان عنه ، ومن هنا تبرز دلالة التثوير ـ التى يبثها الشاعر فى المخاطب ـ على الواقع المرفوض ، وفى مقابل دال العجز يبرز دال القوة فى إحكام الصياغة بالسؤال الذى لا جواب له سوى ما طرحه الشاعر فى التركيب القصرى للسؤال ، فدلالة النفى لا تنفصل هنا عن أداة السؤال (من) التى تتبعها أداة الاستثناء (غير) لتسيطر دلالة القصر على التركيب فلا تدع أمام المتلقى سوى هذا الاختيار الوحيد ، وبتلك الإمكانيات التى توفرت للتركيب يظل التفاعل بين الدلالة والمتلقى قائما فى جدل لاينضب .

وهنا يبدو الموقف أكثر غرابة لسببين : أحدهما أن الدافع وراء السؤال ليس الجهل بالمسئول عنه لأنه معلوم يقينا ، والآخر أن الحالة التى دفعت الشاعر ليست الانبهار الذى يفتقد فيه القدرة على إبداع التراكيب الجاهزة ؛ لأنه مدفوع إلى السؤال والإجابة بثبات اليقين . بل إن جل جرارة الموقف تكمن فى هذا اليقين ، بل لعل الشئ الأشد إيلاماً هو ذلك اليقين الذى تنطق به الإجابة ، إذ لو انتفى اليقين وتشعبت الاحتمالات وغامت الرؤى لغابت بواعث الحرارة عن الموقف الانفعالى بعامة ، أضف إلى ذلك أن السؤال لا يعنى مجرد النفى أو التعجب ، أو ما إلى ذلك ، وبالتالى ينتفى إمكان حصر الأغراض التى يمكن

فإنها قد جنحت إلى قصر وتعميم ليس لهما ما يبررهما ، فجعلت البعد النفسى مقتصراً على الضيق الذى يبلغ من نفس السائل مبلغه ، مع أن الأبعاد النفسية للسؤال - الذى يعد النفى إحدى دلالاته - كثيرة متشعبة متشابكة مختلطة ، أما التعميم فلكونها جعلت الضيق بعداً نفسياً عاماً فى السؤال الدال على النفى بشكل مطلق ، مع أن العديد من الأسئلة الواردة فى القرآن ليست حكاية عن الخلق ولكنها من الله مباشرة ، فكيف يقال فيها بهذا البعد النفسى الذى ذكره المؤلف ؟ ولنتأمل الشواهد التى ذكرها المؤلف فى معالجة هذه الجزئية لنتبين حقيقة الخلل فى هذا التعميم فقد استشهد بقوله تعالى : " ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها " [٩٠] وبقوله تعالى : " ومن أصدق من الله قيلاً " [٩١] ، وبقوله تعالى : " ومن أحسنُ قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين " [٩٢] .

أضف إلى ذلك عدم الدقة فى اختيار الشواهد ، واعتماده فى بيان ذلك البعد النفسى على عناصر ومعطيات خارج الحدث الألسنى ، فقد استشهد بقوله تعالى : " حكاية عن لوط عليه السلام " أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ؟ بل أنتم قوم عادون " [٩٣] وفى تعليقه على الآيات حدد دلالة السؤال فى أمور ثلاثة :-

١. تقرير حقيقة انشغال الرجال عن أزواجهم بالذكران أمثالهم .

٢. التعبير عن نفسه التى لم تطق أن ترى فعلتهم تلك تشيع فى المجتمع الإنسانى ، ولهذا قال : " إنى لعملكم من القالين " .

٣. الدعوة إلى سلوك السبيل السوى .

ثم علق بقوله : " وهكذا كل استفهام استنكارى يحمل العناصر الثلاثة وقد تزيد ، بينما يقتصر أسلوب النفى عادة على الأول فحسب " [٩٤] والواقع أنه ليس فى السؤال ولا فى تعليقه عليه ما يدل على النفى على الإطلاق ، والدلالة الواضحة المباشرة التى تفهم من السؤال تتحدد فى النهى ، ولا تنفصل دلالة النهى هنا عن الاستنكار ، فهو ينهاهم وينهرهم لأنه ينكر عليهم ذلك الفعل ، ويتضمن السؤال إلى جانب ذلك دلالة التوبيخ والتعنيف ، بالإضافة إلى ما ذكره المؤلف من دلالة على التعبير عن نفسه والدعوة إلى السلوك السوى ، ويحاول المؤلف تبرير دلالة السؤال على النفى بقوله : " ولقد أدخل الاستنكار فى باب النفى على اعتبار أن المتحدث إنما ينفى المستنكر منه أن يكون مما يستوجبه العقل أو الخلق الإنسانى " [٩٥] ، ولكن ما الداعى لمحاولة التأويل لتلاءم دلالة السؤال مع النفى مادامت دلالة النهى واضحة جلية ليست بحاجة إلى مبررات ، يصدق ذلك - فى الغالب - على السؤال الموجه للمخاطب الذى استخدمت الهمزة بعدها فعل مضارع فيه تاء المضارعة الدالة على إسناد الفعل للمخاطب نحو : "

واعلم أن الهمزة فيما ذكرنا تقرير بفعل قد كان ، وإنكار له لِمَ كان ؟ ، وتوبيخ لفاعله عليه"[٧٠]

ولكن إذا كانت الفكرة التى صدر عنها عبد القاهر من حيث هى صحيحة دقيقة ، فإن ذلك بغض النظر عن تطبيقها الذى أشرنا إليه هنا الآن ، لأنه - مع ذلك - لايفى بدلالات السؤال ، فبقليل من التأمل تجد السؤال هنا يفيد التحقير أيضاً لوضعهم المخاطب إبراهيم عليه السلام موضع مقارنه مع آلهتهم التى يجلونها ويقدسونها تحقيراً لم يطيقوا معه النطق بهذا الفعل فاكتفوا بالإشارة إليه " فعلت هذا " ، والمقارنة هنا مشربة بدلالة التضاد بين أن يَفْعَل هذا الفعل بالآلهة - على زعمهم - وأن يُفْعَل منه هو هذا الفعل ، فالسؤال يضع المخاطب دون الجرأة على القيام بهذا الفعل ، ويضع الآلهة فوق أن يقع عليها مثل هذا الفعل .

والسؤال يشير - إلى جانب ذلك - إلى نبرة تهديد غير خافية ، فما يسألونه ليكافئوه أو يمهلوه أو يتركوه ، وإنما يسألونه ليحلوا به أقصى عقاب ممكن ، إذا ما أقر بأنه فعل ذلك ، وتستطيع أن تلمس التهديد فى السؤال من الإجابة إذا لم تفصل السؤال عن سياقه ، فمع أن إبراهيم - عليه السلام - كان من الجرأة والشجاعة واليقين والثقة بحيث فعل ما فعل ، فإنه لم يقر بالفعل إقراراً صريحاً ، نعم إن الإجابة قد تحمل دلالة السخرية منهم ومن معتقدهم ولكنها سخرية تدفع إلى التفكير والتأمل والتدبر ، فهى إذن جزء لايتجزأ من دعوته إلى ترك عبادة هذه الآلهة ، ولاحتفاظها بمضمون الدعوة ففيها محاولة لإثنائهم عن أن يحلوا به عقاباً على هذا الفعل ، ومن هنا كان إقرار بعض البلاغيين بالتجاوز لحدود المقولات البلاغية التنظيرية ، فقد تنبه سعد الدين التفتازانى إلى أن مرجعية استكناه الدلالة إلى " سلامة الذوق وتتبع التراكيب فلا ينبغى أن تقتصر فى ذلك على معنى سمعته أو مثال وجدته من غير أن تتخطاه ، بل عليك بالتصرف واستعمال الروية والله هو الهادى " [٧١] ليقر بتجاوز التركيب بل العديد من المباحث البلاغية لحدود تنظير البلاغيين وتصنيفاتهم ، وقد أشار أحد المحدثين أيضاً إلى أن " المعانى التى تشير إليها هذه الأدوات ليست محصورة فيما ذكرنا ولا فيما ذكر غيرنا ، وإنما هى متولدات تشيعها السياقات والصيغ ... إن قولنا إن الاستفهام هنا للإنكار أو للاستبعاد أو التقرير أو غيره ليس فى حقيقته تحقيقاً لفقة الدلالة ، وإنما هو إشارة عامة إلى المرمى العام من السياق ، لأن الدلالة ذات مذاق يختلف عن مجرد الإنكار أو الاستبعاد أو غيرهما "[٧٢] لكن هاتين الإشارتين لاتعدوان أن تكونا دليلاً على قصور الدرس البلاغى قديماً وحديثاً عن الوقوف على دلالات هذه التركيب فى معالجاتهم التطبيقية واكتفوا بالقاعدة والشاهد المجتزأ ، ظناً بأنه يمكنهم حصر دلالاته والإحاطة بها .

* * *

أتامرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب ؟ " [٩٦].

ومما يدل على عدم الدقة فى هذا التعميم الذى أطلقه أنه راح ينقض مقولته تلك فى حديثه عن الاستفهام والانفعال فى فكرة مستقله بعنوان " الانفعال وأسلوب الاستهام " التى ناقش فيها تقسيم أحد الباحثين للاستفهام إلى ثلاثة أنواع " الانفعالى ـ التعليمى ـ الاستخبارى " [٩٧] ، راح ينقض مقولته تلك لا لينفى الضيق الذى قال به آنفاً ، ولكن لينفى الانفعال مطلقا عن السؤال فى العديد من الشواهد التى أوردها الباحث المذكور وبعضها سؤال من الله للخلق ، نحو قوله تعالى " هل جزاء الإحسان إلا الإحسان " [٩٨] ، وبعضها حكاية عن الخلق نحو " قالوا : سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين " [٩٩].

نستخلص من هذه الإشارات ما يلى : ـ

١. التفات أبى هلال العسكرى إلى البعد النفسى لإثبات السؤال على الخبر الصريح فى الدلالة على الخبر وفى ذلك مراعاة للبعد النفسى للسؤال فى بعض استعمالاته التى يتحقق فيها التلطف بين السائل والمسؤول.

٢. التفات عبد القاهر الجرجانى إلى أثر السؤال الذى لا يتوفر للتراكيب الأخرى فى دلالة الإنكار فى نفس المخاطب، وإشارته إلى البعد النفسى للسؤال فى كيفية تفاعله مع نفس المخاطب.

٣. التفات د. محمد أحمد أبو الفرج ود. أحمد ماهر البقرى إلى البعد الانفعالى النفسى عند المخاطب مع الاحتراز من التعميم الذى ورد فى معالجتيهما لهذه القضية.

ولكن هل يقتصر البعد النفسى على هذه الملاحظات ؟

لقد سبقت الإشارة إلى أن السؤال يتمتع بثراء فى الدلالات والإيحاءات تستعصى على التحديد لكثرتها وغزارتها واختلاطها واشتابكها ، وبذلك يتجاوز السؤال كل تحديد ومحاولة تصنيف ، ولعلّى لا أبالغ إذا زعمت أن كل سؤال له خصوصية فى سياقه التى لا تكون لسؤال غيره ، نعم قد تتشابه الأسئلة وتتشابه بعض السياقات بيد أن خصوصية ما تظل تميز كل سؤال فى موضع ما عن الآخر ، وسنعرض لبعض الشواهد على هذا بعد أن نلقى الضوء على البعد النفسى للسؤال بوصفه سؤالاً فحسب لا بوصفه سؤالاً عن كذا أو يفيد كذا .

إن السؤال يثير رد فعل تلقائى عند المتلقى فى محاولة الإجابة ، فالمرء يسأل ليجيب أو ليقف وجهاً لوجه مصطدما بعدم معرفة ما هو مسئول عنه ، أو ليقف مستسلماً مبهوراً أمام ما يحمله عليه السائل من إجابة ولايطلب من المخاطب سوى الإقرار بها ، وأمام ما يطرحه من إجابة قد تعقب السؤال بعد أن أثير باحتجاب هذه الإجابة عنه ولو للحظة خاطفة تتحدد فى فترة قراءة السؤال أو سماعه ، ومن هنا كان السؤال أكثر التراكيب اللغوية الفنية استدعاءً للمثيرات عند المتلقى ، فهو يمارس إثارة الدهشة الناجمة

مهما يكن نوعها فى بعض مواضع استعمال تركيب السؤال ، أو لأن هذه التراكيب الجاهزة تقف عاجزة عن تحقيق ما يمكن أن يحققه السؤال فى بعض مواضع الاستعمال الأخرى ، وبذلك يصبح ذلك العجز دالا بذاته ، لأنه ليس عجزاً بمعنى الخور والضعف وعدم القدرة بقدر ما هو تجسيد للعجز

فى كيان لغوى دال بذاته ، أى بوصفه هذا الكيان أو التركيب اللغوى بالتحديد ، ومما ينضاف إلى ذلك من ملابسات تخلق التركيب وعناصره اللغوية المختلفة وصيغه الصرفية وسياقه ، أضف إلى ذلك اعتبار طرفى الخطاب فى السؤال ، ولنتأمل بعض نماذج السؤال فى الخطاب الشعرى على هدى من هذه الملاحظات :

يأخذ السؤال شكلاً مكثفاً فى بيتى أبى فراس الحمدانى :

تُسائِلُنى من أنتَ ؟ وهىَ عليمـــــــةٌ
وهـــلْ فتىً مثلى علـــى حالِهِ نُكْـــرُ ؟

فقلتُ كما شاءتْ ، وشاءَ لها الهوى
قتيلُكِ ، قالتْ : أَيهمْ ؟ فهـــمْ كُثْـــرُ (١٠٠)

فالمبدع هنا (المرسل) هو الذى يوجه إليه السؤال على لسان المستقبل فى أصل تكون الحوار . والسائلة - فى ملاحقتها إياه بالسؤال - تطارده بدلالات التجاهل يبدو ذلك للوهلة الأولى فى استعماله الفعل المضارع (تسائلنى) الذى يدل على استمرار السؤال من قبلها ، وهو يحاول بالسؤال مواجهة السؤال ، بيد أنها مواجهة خانعة لأنه ينعطف بها على نفسه أكثر من توجهه بها إليها ، ليتجسد أمامنا - بالسؤال - أقصى درجات الترفع والتجاهل والتنكر فى مقابل أقصى درجات التهالك والتطلب .

فعندما لا يجديه رد السؤال بسؤال ، وهو الطالب الساعى المتلمس لوصلها ، يرضخ إلى الإجابة الخبرية المباشرة قائلاً : قتيلك ، ويؤكد هذا الرضوخ والتهالك أنها عليمة بتلك الإجابة ، وأن هذه الإجابة إنما جاءت نزولاً على مشيئتها ومشيئة الهوى لها بالتحكم الذى أوقفه موقف الخنوع والرضوخ ، ولكن هذه الإجابة الخبرية القاطعة لا تجدى معها أيضاً ؛ فهـــى ممعنة فى تعاليها مسرفة فى تجاهله ، لذا تصدمه مرة أخرى بالسؤال : " أيهم " وتؤكد على ذلك بالخبر الصريح " فهم كثر " لتجعله رقماً مهملاً فى كم هائل من طالبيها والمتهالكين دون أعتابها .

ولكن البيتين ينتقلان إلى مستوى آخر من الدلالة بانتقالهما إلى مستوى آخر من الخطاب ، فالبيتان بما يحملان من خطاب داخلى بين الشاعر وصاحبته يمثلان - فى الوقت نفسه - خطاباً آخر للمتلقى الذى يقف - بأدواته وثقافته - على تمثل حال الشاعر من خلال استنطاق هذه الأدوات التأثيرية التى اعتمد عليها الشاعر فى البيتين ، والتى كان للسؤال الحضور الأكبر فيها .

ويمثل السؤال عند المتنبى اصطداماً عنيفاً بواقع يعانده ويجافيه فى الأبيات اللصيقة بذاته ، فيتجسد هذا الاصطدام فى دلالات التهالك والضعف التى ينقلها السؤال للمتلقى ، والتى يختلف

فإنها قد جنحت إلى قصر وتعميم ليس لهما ما يبررهما ، فجعلت البعد النفسى مقتصراً على الضيق الذى يبلغ من نفس السائل مبلغه ، مع أن الأبعاد النفسية للسؤال - الذى يعد النفى إحدى دلالاته - كثيرة متشعبة متشابكة مختلطة ، أما التعميم فلكونها جعلت الضيق بعداً نفسياً عاماً فى السؤال الدال على النفى بشكل مطلق ، مع أن العديد من الأسئلة الواردة فى القرآن ليست حكاية عن الخلق ولكنها من الله مباشرة ، فكيف يقال فيها بهذا البعد النفسى الذى ذكره المؤلف ؟ ولنتأمل الشواهد التى ذكرها المؤلف فى معالجة هذه الجزئية لنتبين حقيقة الخلل فى هذا التعميم فقد استشهد بقوله تعالى : " ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها " [٩٠] وبقوله تعالى : " ومن أصدق من الله قيلاً " [٩١] ، وبقوله تعالى : " ومن أحسنُ قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين " [٩٢] .

أضف إلى ذلك عدم الدقة فى اختيار الشواهد ، واعتماده فى بيان ذلك البعد النفسى على عناصر ومعطيات خارج الحدث الألسنى ، فقد استشهد بقوله تعالى : " حكاية عن لوط عليه السلام " أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ؟ بل أنتم قوم عادون " [٩٣] وفى تعليقه على الآيات حدد دلالة السؤال فى أمور ثلاثة :-

١. تقرير حقيقة انشغال الرجال عن أزواجهم بالذكران أمثالهم .

٢. التعبير عن نفسه التى لم تطق أن ترى فعلتهم تلك تشيع فى المجتمع الإنسانى ، ولهذا قال : " إنى لعملكم من القالين " .

٣. الدعوة إلى سلوك السبيل السوى .

ثم علق بقوله : " وهكذا كل استفهام استنكارى يحمل العناصر الثلاثة وقد تزيد ، بينما يقتصر أسلوب النفى عادة على الأول فحسب " [٩٤] والواقع أنه ليس فى السؤال ولا فى تعليقه عليه ما يدل على النفى على الإطلاق ، والدلالة الواضحة المباشرة التى تفهم من السؤال تتحدد فى النهى ، ولا تنفصل دلالة النهى هنا عن الاستنكار ، فهو ينهاهم وينهرهم لأنه ينكر عليهم ذلك الفعل ، ويتضمن السؤال إلى جانب ذلك دلالة التوبيخ والتعنيف ، بالإضافة إلى ما ذكره المؤلف من دلالة على التعبير عن نفسه والدعوة إلى السلوك السوى ، ويحاول المؤلف تبرير دلالة السؤال على النفى بقوله : " ولقد أدخل الاستنكار فى باب النفى على اعتبار أن المتحدث إنما ينفى المستنكر منه أن يكون مما يستوجبه العقل أو الخلق الإنسانى " [٩٥] ، ولكن ما الداعى لمحاولة التأويل لتلاءم دلالة السؤال مع النفى مادامت دلالة النهى واضحة جلية ليست بحاجة إلى مبررات ، يصدق ذلك - فى الغالب - على السؤال الموجه للمخاطب الذى استخدمت الهمزة بعدها فعل مضارع فيه تاء المضارعة الدالة على إسناد الفعل للمخاطب نحو : "

واعلم أن الهمزة فيما ذكرنا تقرير بفعل قد كان ، وإنكار له لِمَ كان ؟ ، وتوبيخ لفاعله عليه"[٧٠]

ولكن إذا كانت الفكرة التى صدر عنها عبد القاهر من حيث هى صحيحة دقيقة ، فإن ذلك بغض النظر عن تطبيقها الذى أشرنا إليه هنا الآن ، لأنه - مع ذلك - لايفى بدلالات السؤال ، فبقليل من التأمل تجد السؤال هنا يفيد التحقير أيضاً لوضعهم المخاطب إبراهيم عليه السلام موضع مقارنه مع آلهتهم التى يجلونها ويقدسونها تحقيراً لم يطيقوا معه النطق بهذا الفعل فاكتفوا بالإشارة إليه " فعلت هذا " ، والمقارنة هنا مشربة بدلالة التضاد بين أن يَفْعَل هذا الفعل بالآلهة - على زعمهم - وأن يُفْعَل منه هو هذا الفعل ، فالسؤال يضع المخاطب دون الجرأة على القيام بهذا الفعل ، ويضع الآلهة فوق أن يقع عليها مثل هذا الفعل .

والسؤال يشير - إلى جانب ذلك - إلى نبرة تهديد غير خافية ، فما يسألونه ليكافئوه أو يمهلوه أو يتركوه ، وإنما يسألونه ليحلوا به أقصى عقاب ممكن ، إذا ما أقر بأنه فعل ذلك ، وتستطيع أن تلمس التهديد فى السؤال من الإجابة إذا لم تفصل السؤال عن سياقه ، فمع أن إبراهيم - عليه السلام - كان من الجرأة والشجاعة واليقين والثقة بحيث فعل ما فعل ، فإنه لم يقر بالفعل إقراراً صريحاً ، نعم إن الإجابة قد تحمل دلالة السخرية منهم ومن معتقدهم ولكنها سخرية تدفع إلى التفكير والتأمل والتدبر ، فهى إذن جزء لايتجزأ من دعوته إلى ترك عبادة هذه الآلهة ، ولاحتفاظها بمضمون الدعوة ففيها محاولة لإثنائهم عن أن يحلوا به عقاباً على هذا الفعل ، ومن هنا كان إقرار بعض البلاغيين بالتجاوز لحدود المقولات البلاغية التنظيرية ، فقد تنبه سعد الدين التفتازانى إلى أن مرجعية استكناه الدلالة إلى " سلامة الذوق وتتبع التراكيب فلا ينبغى أن تقتصر فى ذلك على معنى سمعته أو مثال وجدته من غير أن تتخطاه ، بل عليك بالتصرف واستعمال الروية والله هو الهادى " [٧١] ليقر بتجاوز التركيب بل العديد من المباحث البلاغية لحدود تنظير البلاغيين وتصنيفاتهم ، وقد أشار أحد المحدثين أيضاً إلى أن " المعانى التى تشير إليها هذه الأدوات ليست محصورة فيما ذكرنا ولا فيما ذكر غيرنا ، وإنما هى متولدات تشيعها السياقات والصيغ ... إن قولنا إن الاستفهام هنا للإنكار أو للاستبعاد أو التقرير أو غيره ليس فى حقيقته تحقيقاً لفقة الدلالة ، وإنما هو إشارة عامة إلى المرمى العام من السياق ، لأن الدلالة ذات مذاق يختلف عن مجرد الإنكار أو الاستبعاد أو غيرهما "[٧٢] لكن هاتين الإشارتين لاتعدوان أن تكونا دليلاً على قصور الدرس البلاغى قديماً وحديثاً عن الوقوف على دلالات هذه التركيب فى معالجاتهم التطبيقية واكتفوا بالقاعدة والشاهد المجتزأ ، ظناً بأنه يمكنهم حصر دلالاته والإحاطة بها .

* * *

أتامرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب ؟ " [٩٦].

ومما يدل على عدم الدقة فى هذا التعميم الذى أطلقه أنه راح ينقض مقولته تلك فى حديثه عن الاستفهام والانفعال فى فكرة مستقله بعنوان " الانفعال وأسلوب الاستهام " التى ناقش فيها تقسيم أحد الباحثين للاستفهام إلى ثلاثة أنواع " الانفعالى ـ التعليمى ـ الاستخبارى " [٩٧] ، راح ينقض مقولته تلك لا لينفى الضيق الذى قال به آنفاً ، ولكن لينفى الانفعال مطلقا عن السؤال فى العديد من الشواهد التى أوردها الباحث المذكور وبعضها سؤال من الله للخلق ، نحو قوله تعالى " هل جزاء الإحسان إلا الإحسان " [٩٨] ، وبعضها حكاية عن الخلق نحو " قالوا : سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين " [٩٩].

نستخلص من هذه الإشارات ما يلى : ـ

١. التفات أبى هلال العسكرى إلى البعد النفسى لإثبات السؤال على الخبر الصريح فى الدلالة على الخبر وفى ذلك مراعاة للبعد النفسى للسؤال فى بعض استعمالاته التى يتحقق فيها التلطف بين السائل والمسؤول.

٢. التفات عبد القاهر الجرجانى إلى أثر السؤال الذى لا يتوفر للتراكيب الأخرى فى دلالة الإنكار فى نفس المخاطب، وإشارته إلى البعد النفسى للسؤال فى كيفية تفاعله مع نفس المخاطب.

٣. التفات د. محمد أحمد أبو الفرج ود. أحمد ماهر البقرى إلى البعد الانفعالى النفسى عند المخاطب مع الاحتراز من التعميم الذى ورد فى معالجتيهما لهذه القضية.

ولكن هل يقتصر البعد النفسى على هذه الملاحظات ؟

لقد سبقت الإشارة إلى أن السؤال يتمتع بثراء فى الدلالات والإيحاءات تستعصى على التحديد لكثرتها وغزارتها واختلاطها واشتابكها ، وبذلك يتجاوز السؤال كل تحديد ومحاولة تصنيف ، ولعلّى لا أبالغ إذا زعمت أن كل سؤال له خصوصية فى سياقه التى لا تكون لسؤال غيره ، نعم قد تتشابه الأسئلة وتتشابه بعض السياقات بيد أن خصوصية ما تظل تميز كل سؤال فى موضع ما عن الآخر ، وسنعرض لبعض الشواهد على هذا بعد أن نلقى الضوء على البعد النفسى للسؤال بوصفه سؤالاً فحسب لا بوصفه سؤالاً عن كذا أو يفيد كذا .

إن السؤال يثير رد فعل تلقائى عند المتلقى فى محاولة الإجابة ، فالمرء يسأل ليجيب أو ليقف وجهاً لوجه مصطدما بعدم معرفة ما هو مسئول عنه ، أو ليقف مستسلماً مبهوراً أمام ما يحمله عليه السائل من إجابة ولايطلب من المخاطب سوى الإقرار بها ، وأمام ما يطرحه من إجابة قد تعقب السؤال بعد أن أثير باحتجاب هذه الإجابة عنه ولو للحظة خاطفة تتحدد فى فترة قراءة السؤال أو سماعه ، ومن هنا كان السؤال أكثر التراكيب اللغوية الفنية استدعاءً للمثيرات عند المتلقى ، فهو يمارس إثارة الدهشة الناجمة

مهما يكن نوعها في بعض مواضع استعمال تركيب السؤال ، أو لأن هذه التراكيب الجاهزة تقف عاجزة عن تحقيق ما يمكن أن يحققه السؤال في بعض مواضع الاستعمال الأخرى ، وبذلك يصبح ذلك العجز دالا بذاته ، لأنه ليس عجزاً بمعنى الخور والضعف وعدم القدرة بقدر ما هو تجسيد للعجز

في كيان لغوى دال بذاته ، أى بوصفه هذا الكيان أو التركيب اللغوى بالتحديد ، ومما ينضاف إلى ذلك من ملابسات تخلق التركيب وعناصره اللغوية المختلفة وصيغه الصرفية وسياقه ، أضف إلى ذلك اعتبار طرفى الخطاب فى السؤال ، ولنتأمل بعض نماذج السؤال فى الخطاب الشعرى على هدى من هذه الملاحظات :

يأخذ السؤال شكلاً مكثفاً فى بيتى أبى فراس الحمدانى :

تُسائِلُنى من أنتَ ؟ وهىَ عليمـــــــةٌ

وهـــلْ فتىً مثلى علـــى حالهِ نُكْـــرُ ؟

فقلتُ كما شاءتْ ، وشاءَ لها الهوى

قتيلُك ، قالتْ : أَيهمْ ؟ فهـــمُ كُثْــرُ (١٠٠)

فالمبدع هنا (المرسل) هو الذى يوجه إليه السؤال على لسان المستقبل فى أصل تكون الحوار . والسائلة - فى ملاحقتها إياه بالسؤال - تطارده بدلالات التجاهل يبدو ذلك للوهلة الأولى فى استعماله الفعل المضارع (تسائلنى) الذى يدل على استمرار السؤال من قبلها ، وهو يحاول بالسؤال مواجهة السؤال ، بيد أنها مواجهة خانعة لأنه ينعطف بها على نفسه أكثر من توجهه بها إليها ، ليتجسد أمامنا - بالسؤال - أقصى درجات الترفع والتجاهل والتنكر فى مقابل أقصى درجات التهالك والتطلب .

فعندما لا يجديه رد السؤال بسؤال ، وهو الطالب الساعى المتلمس لوصلها ، يرضخ إلى الإجابة الخبرية المباشرة قائلاً : قتيلك ، ويؤكد هذا الرضوخ والتهالك أنها عليمة بتلك الإجابة ، وأن هذه الإجابة إنما جاءت نزولاً على مشيئتها ومشيئة الهوى لها بالتحكم الذى أوقفه موقف الخنوع والرضوخ ، ولكن هذه الإجابة الخبرية القاطعة لا تجدى معها أيضاً ؛ فهـــى ممعنة فى تعاليها مسرفة فى تجاهله ، لذا تصدمه مرة أخرى بالسؤال : " أيهم " وتؤكد على ذلك بالخبر الصريح " فهم كثر " لتجعله رقماً مهملاً فى كم هائل من طالبيها والمتهالكين دون أعتابها .

ولكن البيتين ينتقلان إلى مستوى آخر من الدلالة بانتقالهما إلى مستوى آخر من الخطاب ، فالبيتان بما يحملان من خطاب داخلى بين الشاعر وصاحبته يمثلان - فى الوقت نفسه - خطاباً آخر للمتلقى الذى يقف - بأدواته وثقافته - على تمثل حال الشاعر من خلال استنطاق هذه الأدوات التأثيرية التى اعتمد عليها الشاعر فى البيتين ، والتى كان للسؤال الحضور الأكبر فيها .

ويمثل السؤال عند المتنبى اصطداماً عنيفاً بواقع يعانده ويجافيه فى الأبيات اللصيقة بذاته ، فيتجسد هذا الاصطدام فى دلالات التهالك والضعف التى ينقلها السؤال للمتلقى ، والتى يختلف

بدلالات الترقب واللهفة لغلطها وخروجها عن رتابة موقفها ، ويضع الشاعر فى البيت الأخير نفسه هدفا لملمات الدهر ونوائبه ، فهى جميعها عنده مقيمة لا تفارقه ، وهو يرى منها ومن نفسه ما كشف عنه فى السؤال الذى يبين مدى الضجر الذى يسيطر على نفسه ، وذلك كله يجتمع فى نهاية الأمر على تكثيف دلالة العجز فى مواجهة هذه المواقف العنيفة القاسية .

ومع ذلك يظل هذا القول غير مطلق ، فليس السؤال دائماً دالاً على العجز أو كاشفاً عن عجز فقط ، فإن تركيبة لافتة تبرز فى بعض تكوينات السؤال ؛ لتجاوزه ذلك الذى أشرنا إليه من قبل ، وتبدو غرابتها فى إتيان السؤال فيها متبوعاً بالإجابة ، ويبدو الموقف أمام هذه التراكيب أكثر إدهاشاً عندما تكون الإجابة ليست مجرد اقتراح أو احتمال أو إجابة مشكوك فيها ، بل تأتى قاطعة صارمة إذ لا يحتمل السؤال سوى تلك الإجابة الوحيدة التى ينطق بها النص ، مثال ذلك قول الشاعر أمل دنقل :

آه ، من سوف يرفع فى غد هامته غير من طأطأوا حين أز الرصاص ؟
ومن سوف يؤى الأرامل غير من سيؤول إليه خراج المدينة ؟ (١٠٤)

فالسؤال هنا عن العاقل ، إذ استعمل الشاعر فيه (من) التى يطلب بها التصور ، ولكن الشاعر لايلبث أن يقوم بتعيين المطلوب ، فالسؤال هنا ليس اصطداماً بما يعجز الشاعر عن الإجابة عنه ، ولكنه مع ذلك لا ينفصل عن دلالة العجز ، ومصدر العجز هنا يتضح من الاعتراض الضمنى الذى تحمله علاقة التضاد التى تكونت منها بنية السؤال بين (يرفع ـ طأطأوا) ، فهو يقف على الإجابة ويوقف المتلقى عليها ، ثم يتجاوز ذلك إلى حمل المخاطب على رفض الواقع بوضعه وجها لوجه أمام التناقض الذى يسلم إسلاماً تلقائياً إلى الرفض ، إن دلالة العجز هنا كامنة فى رفض الشاعر لواقع لا مناص من الاعتراف به ، ولا حيلة له سوى الإعلان عنه ، ومن هنا تبرز دلالة التثوير ـ التى يبثها الشاعر فى المخاطب ـ على الواقع المرفوض ، وفى مقابل دال العجز يبرز دال القوة فى إحكام الصياغة بالسؤال الذى لا جواب له سوى ما طرحه الشاعر فى التركيب القصرى للسؤال ، فدلالة النفى لا تنفصل هنا عن أداة السؤال (من) التى تتبعها أداة الاستثناء (غير) لتسيطر دلالة القصر على التركيب فلا تدع أمام المتلقى سوى هذا الاختيار الوحيد ، وبتلك الإمكانيات التى توفرت للتركيب يظل التفاعل بين الدلالة والمتلقى قائما فى جدل لاينضب .

وهنا يبدو الموقف أكثر غرابة لسببين : أحدهما أن الدافع وراء السؤال ليس الجهل بالمسئول عنه لأنه معلوم يقينا ، والآخر أن الحالة التى دفعت الشاعر ليست الانبهار الذى يفتقد فيه القدرة على إبداع التراكيب الجاهزة ؛ لأنه مدفوع إلى السؤال والإجابة بثبات اليقين . بل إن جل جرارة الموقف تكمن فى هذا اليقين ، بل لعل الشئ الأشد إيلاماً هو ذلك اليقين الذى تنطق به الإجابة ، إذ لو انتفى اليقين وتشعبت الاحتمالات وغامت الرؤى لغابت بواعث الحرارة عن الموقف الانفعالى بعامة ، أضف إلى ذلك أن السؤال لا يعنى مجرد النفى أو التعجب ، أو ما إلى ذلك ، وبالتالى ينتفى إمكان حصر الأغراض التى يمكن

واعلم أن الهمزة فيما ذكرنا تقرير بفعل قد كان ، وإنكار له لِمَ كان ؟ ، وتوبيخ لفاعله عليه"[٧٠]

ولكن إذا كانت الفكرة التى صدر عنها عبد القاهر من حيث هى صحيحة دقيقة ، فإن ذلك بغض النظر عن تطبيقها الذى أشرنا إليه هنا الآن ، لأنه - مع ذلك - لايفى بدلالات السؤال ، فبقليل من التأمل تجد السؤال هنا يفيد التحقير أيضاً لوضعهم المخاطب إبراهيم عليه السلام موضع مقارنه مع آلهتهم التى يجلونها ويقدسونها تحقيراً لم يطيقوا معه النطق بهذا الفعل فاكتفوا بالإشارة إليه " فعلت هذا " ، والمقارنة هنا مشربة بدلالة التضاد بين أن يَفْعَل هذا الفعل بالآلهة - على زعمهم - وأن يُفْعَل منه هو هذا الفعل ، فالسؤال يضع المخاطب دون الجرأة على القيام بهذا الفعل ، ويضع الآلهة فوق أن يقع عليها مثل هذا الفعل .

والسؤال يشير - إلى جانب ذلك - إلى نبرة تهديد غير خافية ، فما يسألونه ليكافئوه أو يمهلوه أو يتركوه ، وإنما يسألونه ليحلوا به أقصى عقاب ممكن ، إذا ما أقر بأنه فعل ذلك ، وتستطيع أن تلمس التهديد فى السؤال من الإجابة إذا لم تفصل السؤال عن سياقه ، فمع أن إبراهيم - عليه السلام - كان من الجرأة والشجاعة واليقين والثقة بحيث فعل ما فعل ، فإنه لم يقر بالفعل إقراراً صريحاً ، نعم إن الإجابة قد تحمل دلالة السخرية منهم ومن معتقدهم ولكنها سخرية تدفع إلى التفكير والتأمل والتدبر ، فهى إذن جزء لايتجزأ من دعوته إلى ترك عبادة هذه الآلهة ، ولاحتفاظها بمضمون الدعوة ففيها محاولة لإثنائهم عن أن يحلوا به عقاباً على هذا الفعل ، ومن هنا كان إقرار بعض البلاغيين بالتجاوز لحدود المقولات البلاغية التنظيرية ، فقد تنبه سعد الدين التفتازانى إلى أن مرجعية استكناه الدلالة إلى " سلامة الذوق وتتبع التراكيب فلا ينبغى أن تقتصر فى ذلك على معنى سمعته أو مثال وجدته من غير أن تتخطاه ، بل عليك بالتصرف واستعمال الروية والله هو الهادى " [٧١] ليقر بتجاوز التركيب بل العديد من المباحث البلاغية لحدود تنظير البلاغيين وتصنيفاتهم ، وقد أشار أحد المحدثين أيضاً إلى أن " المعانى التى تشير إليها هذه الأدوات ليست محصورة فيما ذكرنا ولا فيما ذكر غيرنا ، وإنما هى متولدات تشيعها السياقات والصيغ ... إن قولنا إن الاستفهام هنا للإنكار أو للاستبعاد أو التقرير أو غيره ليس فى حقيقته تحقيقاً لفقة الدلالة ، وإنما هو إشارة عامة إلى المرمى العام من السياق ، لأن الدلالة ذات مذاق يختلف عن مجرد الإنكار أو الاستبعاد أو غيرهما "[٧٢] لكن هاتين الإشارتين لاتعدوان أن تكونا دليلاً على قصور الدرس البلاغى قديماً وحديثاً عن الوقوف على دلالات هذه التركيب فى معالجاتهم التطبيقية واكتفوا بالقاعدة والشاهد المجتزأ ، ظناً بأنه يمكنهم حصر دلالاته والإحاطة بها .

* * *

مهما يكن نوعها فى بعض مواضع استعمال تركيب السؤال ، أو لأن هذه التراكيب الجاهزة تقف عاجزة عن تحقيق ما يمكن أن يحققه السؤال فى بعض مواضع الاستعمال الأخرى ، وبذلك يصبح ذلك العجز دالا بذاته ، لأنه ليس عجزاً بمعنى الخور والضعف وعدم القدرة بقدر ما هو تجسيد للعجز

فى كيان لغوى دال بذاته ، أى بوصفه هذا الكيان أو التركيب اللغوى بالتحديد ، ومما ينضاف إلى ذلك من ملابسات تخلق التركيب وعناصره اللغوية المختلفة وصيغه الصرفية وسياقه ، أضف إلى ذلك اعتبار طرفى الخطاب فى السؤال ، ولنتأمل بعض نماذج السؤال فى الخطاب الشعرى على هدى من هذه الملاحظات :

يأخذ السؤال شكلاً مكثفاً فى بيتى أبى فراس الحمدانى :

تُسائِلُنى من أنتَ ؟ وهى عليمـــــةٌ
وهـــلْ فتىً مثلى علــــى حالهِ نُكْــــرُ ؟

فقلتُ كما شاءتْ ، وشاءَ لها الهوى
قتيلُكِ ، قالتْ : أَيهمْ ؟ فهـــمُ كُثْــرُ (١٠٠)

فالمبدع هنا (المرسل) هو الذى يوجه إليه السؤال على لسان المستقبل فى أصل تكون الحوار ، والسائلة ـ فى ملاحقتها إياه بالسؤال ـ تطارده بدلالات التجاهل يبدو ذلك للوهلة الأولى فى استعماله الفعل المضارع (تسائلنى) الذى يدل على استمرار السؤال من قبلها ، وهو يحاول بالسؤال مواجهة السؤال ، بيد أنها مواجهة خانعة لأنه ينعطف بها على نفسه أكثر من توجهه بها إليها ، ليتجسد أمامنا ـ بالسؤال ـ أقصى درجات الترفع والتجاهل والتنكر فى مقابل أقصى درجات التهالك والتطلب .

فعندما لا يجديه رد السؤال بسؤال ، وهو الطالب الساعى المتلمس لوصلها ، يرضخ إلى الإجابة الخبرية المباشرة قائلاً : قتيلك ، ويؤكد هذا الرضوخ والتهالك أنها عليمة بتلك الإجابة ، وأن هذه الإجابة إنما جاءت نزولاً على مشيئتها ومشيئة الهوى لها بالتحكم الذى أوقفه موقف الخنوع والرضوخ ، ولكن هذه الإجابة الخبرية القاطعة لا تجدى معها أيضاً ؛ فهـــى ممعنة فى تعاليها مسرفة فى تجاهله ، لذا تصدمه مرة أخرى بالسؤال : " أيهم " وتؤكد على ذلك بالخبر الصريح " فهم كثر " لتجعله رقماً مهملاً فى كم هائل من طالبيها والمتهالكين دون أعتابها .

ولكن البيتين ينتقلان إلى مستوى آخر من الدلالة بانتقالهما إلى مستوى آخر من الخطاب ، فالبيتان بما يحملان من خطاب داخلى بين الشاعر وصاحبته يمثلان ـ فى الوقت نفسه ـ خطاباً آخر للمتلقى الذى يقف ـ بأدواته وثقافته ـ على تمثل حال الشاعر من خلال استنطاق هذه الأدوات التأثيرية التى اعتمد عليها الشاعر فى البيتين ، والتى كان للسؤال الحضور الأكبر فيها .

ويمثل السؤال عند المتنبى اصطداماً عنيفاً بواقع يعانده ويجافيه فى الأبيات اللصيقة بذاته ، فيتجسد هذا الاصطدام فى دلالات التهالك والضعف التى ينقلها السؤال للمتلقى ، والتى يختلف

بدلالات الترقب واللهفة لغلطها وخروجها عن رتابة موقفها ، ويضع الشاعر فى البيت الأخير نفسه هدفا لملمات الدهر ونوائبه ، فهى جميعها عنده مقيمة لا تفارقه ، وهو يرى منها ومن نفسه ما كشف عنه فى السؤال الذى يبين مدى الضجر الذى يسيطر على نفسه ، وذلك كله يجتمع فى نهاية الأمر على تكثيف دلالة العجز فى مواجهة هذه المواقف العنيفة القاسية .

ومع ذلك يظل هذا القول غير مطلق ، فليس السؤال دائماً دالاً على العجز أو كاشفاً عن عجز فقط ، فإن تركيبة لافتة تبرز فى بعض تكوينات السؤال ؛ لتجاوزه ذلك الذى أشرنا إليه من قبل ، وتبدو غرابتها فى إتيان السؤال فيها متبوعاً بالإجابة ، ويبدو الموقف أمام هذه التراكيب أكثر إدهاشاً عندما تكون الإجابة ليست مجرد اقتراح أو احتمال أو إجابة مشكوك فيها ، بل تأتى قاطعة صارمة إذ لا يحتمل السؤال سوى تلك الإجابة الوحيدة التى ينطق بها النص ، مثال ذلك قول الشاعر أمل دنقل :

آه ، من سوف يرفع فى غد هامته غير من طأطأوا حين أز الرصاص ؟
ومن سوف يؤى الأرامل غير من سيؤول إليه خراج المدينة ؟ (١٠٤)

فالسؤال هنا عن العاقل ، إذ استعمل الشاعر فيه (من) التى يطلب بها التصور ، ولكن الشاعر لايلبث أن يقوم بتعيين المطلوب ، فالسؤال هنا ليس اصطداماً بما يعجز الشاعر عن الإجابة عنه ، ولكنه مع ذلك لا ينفصل عن دلالة العجز ، ومصدر العجز هنا يتضح من الاعتراض الضمنى الذى تحمله علاقة التضاد التى تكونت منها بنية السؤال بين (يرفع ـ طأطأوا) ، فهو يقف على الإجابة ويوقف المتلقى عليها ، ثم يتجاوز ذلك إلى حمل المخاطب على رفض الواقع بوضعه وجها لوجه أمام التناقض الذى يسلم إسلاماً تلقائياً إلى الرفض ، إن دلالة العجز هنا كامنة فى رفض الشاعر لواقع لا مناص من الاعتراف به ، ولا حيلة له سوى الإعلان عنه ، ومن هنا تبرز دلالة التثوير ـ التى يبثها الشاعر فى المخاطب ـ على الواقع المرفوض ، وفى مقابل دال العجز يبرز دال القوة فى إحكام الصياغة بالسؤال الذى لا جواب له سوى ما طرحه الشاعر فى التركيب القصرى للسؤال ، فدلالة النفى لا تنفصل هنا عن أداة السؤال (من) التى تتبعها أداة الاستثناء (غير) لتسيطر دلالة القصر على التركيب فلا تدع أمام المتلقى سوى هذا الاختيار الوحيد ، وبتلك الإمكانيات التى توفرت للتركيب يظل التفاعل بين الدلالة والمتلقى قائما فى جدل لاينضب .

وهنا يبدو الموقف أكثر غرابة لسببين : أحدهما أن الدافع وراء السؤال ليس الجهل بالمسئول عنه لأنه معلوم يقينا ، والآخر أن الحالة التى دفعت الشاعر ليست الانبهار الذى يفتقد فيه القدرة على إبداع التراكيب الجاهزة ؛ لأنه مدفوع إلى السؤال والإجابة بثبات اليقين . بل إن جل جرارة الموقف تكمن فى هذا اليقين ، بل لعل الشئ الأشد إيلاماً هو ذلك اليقين الذى تنطق به الإجابة ، إذ لو انتفى اليقين وتشعبت الاحتمالات وغامت الرؤى لغابت بواعث الحرارة عن الموقف الانفعالى بعامة ، أضف إلى ذلك أن السؤال لا يعنى مجرد النفى أو التعجب ، أو ما إلى ذلك ، وبالتالى ينتفى إمكان حصر الأغراض التى يمكن

أن يرجع إليها السؤال فى غرض واحد ، فكيف يمكن حصر السؤال فى غرض واحد فى قول الشاعر :

* آهٍ منْ يوقفُ فى رأسى الطواحين ؟ (١٠٥)

لعل أول ما يتبادر إلى الذهن فى محاولة تحديد الغرض من السؤال هنا هو القول بأن غرضه النفى ، ولكن ذلك القول يستدعى التساؤلات التى أسلفنا الإشارة إليها عن إيثار النفى بتركيب السؤال على النفى الصريح ، ومحاولة توضيح ذلك تسلمنا إلى الحديث عن الأبعاد النفسية التى تتكشف من دلالات تركيب السؤال ، فلو استخدم الشاعر تركيب النفى الصريح " لا أحد يوقف فى رأسى الطواحين " لانتفى عن التركيب دلالة استمرار التفاعل والتوتر والثورة ، ولأبان هذا النفى الصريح عن استقرار من نوع ما ، ربما يكون استقرار الاصطدام بالواقع ، ربما يكون استقرار الرضوخ لهذا الواقع ، ربما يكون استقرار اليأس الذى لا يجد الإنسان منه بداً ، وربما يكون ذلك كله .

أما تركيب السؤال فهو يحقق دلالة التشوف مع التحقق من استحالته فاليأس قائم والإحساس بمرارته قائم أيضاً فى تركيب السؤال ، الصراع قائم والفشل قائم لا يصل الشاعر به ولا يصل هو بالشاعر إلى برد الاستقرار أياً كان نوع هذا الاستقرار ، لتبقى جذوة السؤال متقدة فى نفس الشاعر تنقل هذا البعد النفسى عبر الصراع المرير إلى المتلقى بنبضة وحرقته .

قد يكون القول بأن الغرض النفسى من السؤال إثارة الانتباه وتشويق المتلقى خلوداً إلى الدعة وراحة من التنقيب على العلل الفاعلة ؛ لأن القول بالإثارة والتشويق لم يعد شافياً ، لأنه بالضرورة يردف بسؤال آخر عن علة الإثارة والتشويق فى هذا النمط من الأسئلة ، إن الوسائل التأثيرية ـ المتمثلة فى الصيغ والتراكيب والسياق واعتبار طرفى الخطاب ـ يتحقق من خلالها ذلك البعد النفسى الذى يرتبط بالسؤال ، حتى فى اتخاذه هذا البعد الإقناعى العقلى الذى يحمل – من الوجهة النفسية – بعداً انفعالياً يجمع بين المرسل والمتلقى ليكون غرض السؤال الإثارة .

فالسؤال يفتح عالما من الرؤى حين يصدم المتلقى فى موقف تشعبت فيه الآثار بتشعب المؤثرات ، فما أبعد ما طلبه صاحبا يوسف ـ عليه السلام ـ فى السجن عن رده بهذا السؤال : " يا صَاحِبَى السجنِ أأربابٌ متفرقون خيرٌ أَمِ اللهُ الواحدُ القَهَّار ؟ " (١٠٦) فلم يقصد من ذلك السؤال سوى فتح هذه الرؤى التى أدرك غيابها عن أذهانهم ليثير فيهم التأمل الدافع إلى يقين يود أن يحملهم عليه وأن يقنعهم به ، ويستخدم إبراهيم ـ عليه السلام ـ السؤال سلاحاً قويا فى مواجهة جمع لايقوى على صده ، فيحيلهم إلى السؤال ، ليس بتركيبه ، ولكن فى إجابته عن سؤالهم يطلب إليهم توجيه السؤال إليهم " بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون " (١٠٧) ، لا لشىء إلا ليصدمهم ويدخلهم فى مواجهة مع أنفسهم ، ويستخدم أخوة يوسف الإحالة إلى سؤال دفاعاً عن أنفسهم ، ودفعاً لمظنة السرقة عنه " واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها " (١٠٨) ، ليتأكد بهذه السياقات أن

الروح بالجسد يقوى بقوته ، ويضعف بضعفه "[٤٢] ، لم يعد ثَمَّ مايبرر وجود هذا الفصل بين الفكرة المجردة (المعنى) والصياغة اللغوية (اللفظ) ، وبالتالى فلا معنى لأن تحتفظ البلاغة بهذه الثنائية لتدخل فى التصنيفات التنظيرية التى تعد أساس النسيج الذى يتكون منه العلم .

ولأن المقدمات حفلت بهذا القدر من الاضطراب فلا عجب أن نجد آثار ذلك فى التناقض الذى يقع فيه المؤلف إذ يعود فى الصحيفة ذاتها ليقرر بشكل مطلق دون تمييز بين النوعين المزعومين " والتقرير أحد المعانى التى يخرج إليها الاستفهام عن حقيقته التى تعنى جهل المستفهم بما يستفهم عنه ، وهذا ليس قائماً فى التقرير " [٤٣] لينفى بهذا القطع وجود دلالة الطلب فى الاستفهام التقريرى بنوعيه بإثباته معرفة السائل ونفى الجهل عنه .

السؤال والاستفهام :

هل يصلح مصطلح " السؤال " بديلاً عن مصطلح الاستفهام ؟

إن مشكلة المصطلح التى تطرح الآن فى الدراسات النقدية تولى جلى اهتمامها للتضارب الذى ينشأ من انبثاق مصطلح جديد فى الساحة النقدية ، وبذلك يحتل المصطلح الجديد حيزاً كبيراً فى الدراسات الحديثة ، يقف الاهتمام بالمصطلح القديم دون ذلك ، على الرغم من أن ما يعتريه من الخلط والاضطراب لايقل أثراً فى توجيه مسار الفكر الأدبى والنقدى عن المصطلح الجديد ، لعل المصطلح القديم أحرى بالنظر من المصطلح الجديد ، لأن المصطلح الجديد - باعتبار فى طور النشأة - تتلقفه الأقلام بالبحث والتفحص حيث إنه لما يتبوأ مكانه من الاستقرار والثبات ، ولأن هناك العديد من المصطلحات التى تستعمل بالمفهوم نفسه ، وبذلك يكون المصطلح الجديد فى بؤرة الحركة ، وربما أسهم - بشكل أو بآخر - فى إذكاء هذه الحركة وانبعاث حرارتها ، أما المصطلح القديم فقد اكتسب قدراً من الثبات - على الرغم من عدم خلوه من التضارب والتعدد أيضاً - والألفة تدفع إلى الاستقرار الذى هو من أخطر آفات العلم ، فالألفة تحول بتاب الفكر ويقعد به عن حركية المعرفة ، ويؤدى به إلى الاستكانة والرضوخ للمقولات الثابتة ، فيكتفى الدارسون المحدثون بتناقل المصطلحات القديمة باضطرابها وتضاربها دونما محاولة للنقض أو النقد أو المحاورة ، حتى غدا يقنع الدارس الحديث أن يشير إلى أن أحد القدماء استعمل المصطلح بمعنى كذا ، والآخر استعمله بمعنى كذا ، أو أن فلاناً استعمل مصطلح كذا والآخر استعمل مصطلح كذا للدلالة على مفهوم معين ، ولم ينتل حقل معرفى بهذا الداء قدر ابتلاء الدرس البلاغى قديماً وحديثاً ، الأمر الذى يجعل لإعادة النظر فى المصطلحات البلاغية أهمية لاتقل عن أهمية التفكير والتفحص فى المصطلحات الجديدة ، مادمنا نؤمن بأن البلاغة أداة نقدية ماتزال قادرة على العطاء فى مجال النقد الأدبى .

ومن ثم وجب علينا ألا نتلقى المصطلح البلاغى أو النقدى القديم بوصفه مسلمة لامجال للخوض فيها ، فذلك لن يزيد البلاغة إلا عقماً وجموداً ، والأجدى أن نتلقى هذه المصطلحات القديمة تلقى

بقوله : " والسؤال للمعرفة قد يكون للاستعلام ، وتارة للتبكيت ، وتارة لتعريف المسؤول وتبيينه ، والسؤال إذا كان للتعريف تعدى إلى المفعول الثانى تارة بنفسه وتارة بـ (عن) وهو أكثر نحو : (ويسألونك عن الروح) [٤٩] وإذا كان لاستدعاء مال فيتعدى بنفسه نحو (واسألوا ما أنفقتم) [٥٠] أو بـ (من) نحو : (واسألوا الله من فضله) ، والسؤال كما تعدى بـ (عن) لتضمنه معنى التفتيش تعدى بالباء أيضاً لتضمنه معنى الاعتناء " [٥١] وذكر صاحب مختار الصحاح (سأل سائل بعذاب واقع) أى عن عذاب واقع ، قال الأخفش ؛ يقال : " خرجنا نسأل عن فلان وبفلان " [٥٢] ومع ذلك يمكن فى حالى السؤال التعدى لمفعول واحد ، ففى بيت لبيد بن ربيعة :

فوقفتُ أسألُها وكيف سؤالنا صُمَّاً خوالدَ ما يبين كلامُها[٥٣]

تعدى الفعل " أسأل " إلى مفعول به واحد كما تعدى المصدر " سؤال " كذلك إلى مفعول واحد ، والسؤال فى الحالين يعنى الاستفسار والاستعلام . وفى الحديث الشريف قول الرسول صلى الله عليه وسلم " من سأل الناس تكثراً فإنما يسأل جمراً ، فليستقل أو ليستكثر " [٥٤] ويمكن التمييز بين الدلالتين من حيث التعدية بكون السؤال بمعنى الاستفسار ونحوه يتعدى بـ (عن) ، أو يمكن تعديه بـ (عن) وإن تعدى بنفسه أو بحرف جر غيرها ، أما السؤال الذى هو لطلب المال ونحوه فلا يتعدى بعن مطلقاً ، وإذا أضفنا إلى هذا التميز كون السؤال المعنى هنا تركيباً نحوياً أمكننا تحديد الدلالة الاصطلاحية للسؤال بأنه : تركيب نحوى تستعمل فيه أدوات مخصوصة يسأل به عن شئ طلب له جواب أو لم يطلب ، يتعدى بـ (عن) أو يجوز تعديه بها إن تعدى بغيرها ، ويتميز السؤال فوق هذه المميزات بكونه فى حقل معرفى محدد ، ويمكننا إضافة الخاصية التى اعتمد عليها أبو هلال العسكرى فى التمييز بين السؤال والاستفهام أن الاستفهام لايكون إلا لما يجهله المستفهم ، ويجوز أن يكون السائل سائلا عما يعلم وعما لايعلم ، فإن فى ذلك تبريراً للعدول عن مصطلح الاستفهام إلى مصطلح السؤال .

وحرى بالإشارة أن تغير المفهوم الاصطلاحى للاستفهام ، ليتجاوز المفهوم اللغوى المعجمى بمزيد من التحديدات لايحل إشكالية المصطلح ، لأن الاستفهام لاينفصل عن دلالة الطلب التى تقتضيها الهمزة والسين والتاء ، وهذا أيضاً يصدق على الاستخبار .

ومما يؤنس به فى إيثار السؤال على الاستفهام كتاب " الحروف " لأبى نصر الفارابى ، فقد عقد للسؤال باباً أسماه " حروف السؤال " وهو إن لم يميز بين الاستفهام والسؤال ولم يقدم مبرراً لإيثار السؤال على الاستفهام ، فقد تناثرت مقولاته مؤيدة ماذهبنا إليه هنا ، فمن ذلك قوله : " واستعمال السؤال ليس إنما يكون عند مخاطبة الإنسان لآخر ، لكن عندما يُروّى الإنسان فيما بينه وبين نفسه أيضاً ، فإنه قد يسأل نفسه وهو نفسه يجيب عن شئ من هذه فيما بينه وبين نفسه ، وليس يلتمس أن يستفيد من تلقاء نفسه إلا ذلك العلم الذى كان يؤمل أن يستفيده من غيره إذا سأله عنه " [٥٥] فسؤال المرء نفسه

السـؤال
رؤيـة أسلوبـية

لعل الملاحظات التى وقفنا عليها فى الصفحات السابقة تكشف لنا عن بعض إمكانيات السـؤال وخصوصيته وتميزه فى ذاته لما توفر له من إمكانيات التواصل بين المنشىء والمتلقى ، وتجدر بنا الإشـارة هنـا إلى أن محاولة تحليل التركيب النحـوى مجتزأ مـن سياقه أمـر لا تتنكـر لـه الأسـلوبية بوصفهـا أداة نقديـة ـ تعايشت مع البلاغة أو قامت على أنقاضها ـ فقد تعرض الأسلوبيون للتركيب النحوى بوصفه اختيـاراً بـين عدة بدائل ، فالأسلوب فى أحد مفاهيمه " يمثل اختياراً بين مدخـر مـن الإمكانيـات " [٥٨] ومـن هنـا كـان تفريق (بالليى) بين عدة مستويات من الخطاب : " فعندمـا أعطـى أمـراً أسـتطيع أن أقـول : افعلـوا هـذا ، بدون أى نبر ، أى بالبقاء على مستوى الإيصـال البحـت ، أو أقـول : أوه افعلـوا هـذا ، أو آه ! إذا أردتم فعل هذا ، أو : أوه ، نعم افعلوه ، أكون بهذا قد عبرت عن رغبتى ، وعن أملى ، وعن نفاد صـبرى " [٥٩] وعلى أساس من هذا التفريق جاء حديثهم عـن المضمـون الوجدانـى للغـة بـين تركيـب وآخـر مـن البدائـل الممكنة .

أما تناول البلاغة العربية للسؤال بوصفه (أسلوب استفهام) فهو لا يقتصر ـ كما أشرنا ـ علـى تحليل التركيب النحوى الواحد مجتزأ من سياقه ، ولكنه يتعدى ذلك إلى معالجة نمط من التراكيب النحوية ، ولكن هذه المعالجة ـ مـع تجاوزهـا هـذا ـ جـاءت عـاجزة علـى مستوى التحليـل والإجـراءات التطبيقيـة ، لانصرفها إلى متابعة الشاهد والمثال والجملة " [٦٠] عـن النظـرة الكليـة للـتركيب فـى النـص التـى يمكـن أن تؤسس لنظرية بلاغة النص ، ولعل ذلك ما قصده د. رجاء عيد ببلاغة القصيدة " التى تخوق على شـرائط البلاغيين " [٦١] ، وقد وقفنا على جانب من ذلك .

بين هاتين النظرتين تقف محاولتنا هذه ، بوصفها محاولة تنظيرية تطمح إلى تأصيل معالجة نمـط مـن التراكيب النحوية على هدى من معطيات الأسلوبية الحديثة ، واضعة فى حسابها الوجود الفعلـى للـتركيب فى النصوص ، وتجاوزه للوجود النظرى فى مقولات البلاغيين التقليديين .

يتوزع الدرس الأسلوبى بين عدة أبعاد ، استقل كل بعد منها باهتمام بعض الباحثين والدارسـين على المستويين النظرى والتطبيقى ، وبقيت هذه الأبعاد مثارةً بوصفها قضايا الأسـلوبية التـى تعايشـت فـى مجال الدرس الأسلوبى ، وهذا ليس معرض الحديث التفصيلى عن الأسلوبية وقضاياها ، فسنقتصر هنا علـى القضايا التى تتصل اتصالاً حميماً بموضوع دراستنا هذه ، والتى تتلخص فى القضايا الآتية : ـ

١ ـ السؤال وفكرة الانحراف الأسلوبى .

٢ ـ السؤال بوصفه اختياراً بين بدائل عديدة .

٣ ـ السؤال بوصفه ظاهرة أسلوبية فى النص .

انحرافاً ذا عمق جوهرى فى تكوينات التركيب فى السياقات المختلفة ، يمتد هذا الانحراف ليشمل الاستعمال البلاغى للتركيب فى وجوده فى النصوص الفنية بشكل عام ، إذا فهمنا الانحراف على أنه انحراف عن الأصل الذى وضع أولاً – على حد قولهم – فإذا أمكن القول بالانحراف ـ من هذه الوجهة ـ فإن هذا الانحراف يقلل من جدوى ذلك الأنتشار الذى امتدت ظلاله فى الاستعمال الفنى ليكتسب قدراً من الألفة يجعل من خروج السؤال على دلالة الاستفهام أمراً مستقراً فى الاستعمال الفنى ، وبذلك تقل جدوى مناقشته بوصفه انحرافاً أسلوبياً من هذه الوجهه الضيقة .

بيد أن ثمة ملحظاً آخر لأحد مظاهر الانحراف فى أسلوبية السؤال حرى بالتأمل ويتمثل فى تجاوز السؤال الدائم الدائب للمقولات النظرية والوجود الفعلى للتركيب فى النصوص المختلفة ، فليس كل سؤال خرج عن دلالة الاستفهام إلى دلالة النفى ـ مثلاً ـ سواء ، ولا يمكن أن يكون التحليل الذى يقال فى أحد الأسئلة الدالة على التعجب ـ مثلاً ـ يصلح لأن يقال فى تحليل كل سؤال يحمل دلالة التعجب ، فقد تأتى دلالة التعجب عارضة ضمن دلالة الاستنكار ، وقد تكون دلالة السخرية مخبوءةً وراء دلالة التعجب ، وذلك يجعل الانحراف خاصية دائمة التجدد مع السؤال فى كافة استعمالاته ، وفى مختلف سياقاته ، يؤكد ذلك ما أشرنا إليه آنفاً من استعصاء السؤال على التحديد والانحصار فى مقولات نظرية بعينها .

* * *

ومع أن البلاغيين أوقفوا جهودهم عند حدود " الاستفهام " بوصفه تركيباً جزئياً يحتوى عليه النص القرآنى والشعرى والخطابى وغير ذلك فإن معالجاتهم – فى ظل هذه الملابسة – لم تكن من الدقة بحيث إننا إذا اعتبرنا هذه النظرة هى المرجعية التى تناقش معالجاتهم على أساس منها فإن ذلك لايدفع عن هذه المعالجة القصور والخلل ، ثم ليقف هذا القصور شاهداً على تجاوز التركيب واستعصائه على التحديد ، الأمر الذى يضيف إلى خصوصياته وتميزه ميزة أخرى ومظهراً آخر من مظاهر تجاوزاته العديدة.

إن الاضطراب فى معالجة البلاغيين للتركيب بوصفه أسلوباً مجتزأً من سياقه يتمثل فى عدة مواقف نشير إلى بعضها على سبيل المثال لا الحصر. قبل أن نشرع فى الرؤية التى تسير على هدى من مقولات الأسلوبية الحديثة وقضاياها .

اختلط الأمر على السكاكى فى حديثه عن استعمال " أنى " فذكر أنها تستعمل بمعنى كيف واستشهد على ذلك بقوله تعالى " فأتوا حرثكم أنى شئتم " [٦٥] ثم قال " أى : كيف شئتم " [٦٦] ، وتبعه فى ذلك القزوينى فى التخليص والإيضاح كما تبعه شراح التلخيص[٦٧] ومع احتمال كلمة (أنى) معنى (كيف) فإنها بعيدة عن دلالة الاستفهام ، لأن (كيف) ليست دائماً استفهامية ؛ فهى تستعمل شرطية كما تستعمل للدلالة على مطلق الحال .

وقد أشار د. محمد عبد المنعم خفاجى فى (شرح الإيضاح) إلى القول بشرطية (أنى) هنا " وقيل إنها بمعنى متى وأنه معنى ثالث لها "[٦٨] وغنى عن التنبيه أن استعمالها بمعنى متى أيضاً ليس من الاستفهام فى شىء فى هذا الموضع .

ويبدو هذا الاضطراب واضحاً أيضاً فى معالجاتهم تلك فى التضارب بين أقوالهم فى تصنيف بعض النصوص ـ أو قل الشواهد المجتزأة من سياقاتها ـ وقد جاء هذا التضارب تبعاً لتضاربهم فى الأصول النظرية التى صنفوا التركيب فى بعض المواضع على أساس منها.

ذكر الزركشى فى كتابه " البرهان فى علوم القرآن " أن " هل " لاتقع تقريراً كما يقع غيرها مما هو للاستفهام " ثم قال " وقال الكندى : ذهب كثير من العلماء فى قوله تعالى (هل يسمعونكم) إلى أن (هل) تشارك الهمزة فى معنى التقرير والتوبيخ ، إلا أنى رأيت أبا علّى أبى ذلك ، وهو معذور، فإن ذلك من قبيل الإنكار ، ونقل الشيخ أبو حيان عن سيبويه أن استفهام التقرير لا يكون بـ (هل) ، إنما تستعمل فيه الهمزة ، ثم نقل عن بعضهم أن هل تأتى تقريراً فى قوله تعالى : " هل فى ذلك قسم لذى حجر "[٦٩] وقد التفت عبد القاهر الجرجانى إلى إمكان إفادة التركيب أكثر من دلالة فى بعض استعمالاته وهذا وإن كان إدراكا لتجاوز التركيب للتحدد فى دلالة واحدة ، فإنه لم يجد من عبد القاهر ومن تلاه اضطراداً فى تحليل هذه التراكيب والوقوف على أقصى إمكاناتها فى إبداع الدلالات ، ففى تعليق عبد القاهرعلى قوله تعالى حكاية عن قوم إبراهيم : " أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم " يقول بعد تحليل الاستفهام "

فإنها قد جنحت إلى قصر وتعميم ليس لهما ما يبررهما ، فجعلت البعد النفسى مقتصراً على الضيق الذى يبلغ من نفس السائل مبلغه ، مع أن الأبعاد النفسية للسؤال - الذى يعد النفى إحدى دلالاته - كثيرة متشعبة متشابكة مختلطة ، أما التعميم فلكونها جعلت الضيق بعداً نفسياً عاماً فى السؤال الدال على النفى بشكل مطلق ، مع أن العديد من الأسئلة الواردة فى القرآن ليست حكاية عن الخلق ولكنها من الله مباشرة ، فكيف يقال فيها بهذا البعد النفسى الذى ذكره المؤلف ؟ ولنتأمل الشواهد التى ذكرها المؤلف فى معالجة هذه الجزئية لنتبين حقيقة الخلل فى هذا التعميم فقد استشهد بقوله تعالى : " ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها " [٩٠] وبقوله تعالى : " ومن أصدق من الله قيلاً " [٩١] ، وبقوله تعالى : " ومن أحسنُ قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين " [٩٢] .

أضف إلى ذلك عدم الدقة فى اختيار الشواهد ، واعتماده فى بيان ذلك البعد النفسى على عناصر ومعطيات خارج الحدث الألسنى ، فقد استشهد بقوله تعالى : " حكاية عن لوط عليه السلام " أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ؟ بل أنتم قوم عادون " [٩٣] وفى تعليقه على الآيات حدد دلالة السؤال فى أمور ثلاثة :-

١. تقرير حقيقة انشغال الرجال عن أزواجهم بالذكران أمثالهم .

٢. التعبير عن نفسه التى لم تطق أن ترى فعلتهم تلك تشيع فى المجتمع الإنسانى ، ولهذا قال : " إنى لعملكم من القالين " .

٣. الدعوة إلى سلوك السبيل السوى .

ثم علق بقوله : " وهكذا كل استفهام استنكارى يحمل العناصر الثلاثة وقد تزيد ، بينما يقتصر أسلوب النفى عادة على الأول فحسب " [٩٤] والواقع أنه ليس فى السؤال ولا فى تعليقه عليه ما يدل على النفى على الإطلاق ، والدلالة الواضحة المباشرة التى تفهم من السؤال تتحدد فى النهى ، ولا تنفصل دلالة النهى هنا عن الاستنكار ، فهو ينهاهم وينهرهم لأنه ينكر عليهم ذلك الفعل ، ويتضمن السؤال إلى جانب ذلك دلالة التوبيخ والتعنيف ، بالإضافة إلى ما ذكره المؤلف من دلالة على التعبير عن نفسه والدعوة إلى السلوك السوى ، ويحاول المؤلف تبرير دلالة السؤال على النفى بقوله : " ولقد أدخل الاستنكار فى باب النفى على اعتبار أن المتحدث إنما ينفى المستنكر منه أن يكون مما يستوجبه العقل أو الخلق الإنسانى " [٩٥] ، ولكن ما الداعى لمحاولة التأويل لتلاءم دلالة السؤال مع النفى مادامت دلالة النهى واضحة جلية ليست بحاجة إلى مبررات ، يصدق ذلك - فى الغالب - على السؤال الموجه للمخاطب الذى استخدمت الهمزة بعدها فعل مضارع فيه تاء المضارعة الدالة على إسناد الفعل للمخاطب نحو : "

واعلم أن الهمزة فيما ذكرنا تقرير بفعل قد كان ، وإنكار له لِمَ كان ؟ ، وتوبيخ لفاعله عليه"[٧٠]

ولكن إذا كانت الفكرة التى صدر عنها عبد القاهر من حيث هى صحيحة دقيقة ، فإن ذلك بغض النظر عن تطبيقها الذى أشرنا إليه هنا الآن ، لأنه - مع ذلك - لايفى بدلالات السؤال ، فبقليل من التأمل تجد السؤال هنا يفيد التحقير أيضاً لوضعهم المخاطب إبراهيم عليه السلام موضع مقارنه مع آلهتهم التى يجلونها ويقدسونها تحقيراً لم يطيقوا معه النطق بهذا الفعل فاكتفوا بالإشارة إليه " فعلت هذا " ، والمقارنة هنا مشربة بدلالة التضاد بين أن يَفْعَل هذا الفعل بالآلهة - على زعمهم - وأن يُفْعَل منه هو هذا الفعل ، فالسؤال يضع المخاطب دون الجرأة على القيام بهذا الفعل ، ويضع الآلهة فوق أن يقع عليها مثل هذا الفعل .

والسؤال يشير - إلى جانب ذلك - إلى نبرة تهديد غير خافية ، فما يسألونه ليكافئوه أو يمهلوه أو يتركوه ، وإنما يسألونه ليحلوا به أقصى عقاب ممكن ، إذا ما أقر بأنه فعل ذلك ، وتستطيع أن تلمس التهديد فى السؤال من الإجابة إذا لم تفصل السؤال عن سياقه ، فمع أن إبراهيم - عليه السلام - كان من الجرأة والشجاعة واليقين والثقة بحيث فعل ما فعل ، فإنه لم يقر بالفعل إقراراً صريحاً ، نعم إن الإجابة قد تحمل دلالة السخرية منهم ومن معتقدهم ولكنها سخرية تدفع إلى التفكير والتأمل والتدبر ، فهى إذن جزء لايتجزأ من دعوته إلى ترك عبادة هذه الآلهة ، ولاحتفاظها بمضمون الدعوة ففيها محاولة لإثنائهم عن أن يحلوا به عقاباً على هذا الفعل ، ومن هنا كان إقرار بعض البلاغيين بالتجاوز لحدود المقولات البلاغية التنظيرية ، فقد تنبه سعد الدين التفتازانى إلى أن مرجعية استكناه الدلالة إلى " سلامة الذوق وتتبع التراكيب فلا ينبغى أن تقتصر فى ذلك على معنى سمعته أو مثال وجدته من غير أن تتخطاه ، بل عليك بالتصرف واستعمال الروية والله هو الهادى " [٧١] ليقر بتجاوز التركيب بل العديد من المباحث البلاغية لحدود تنظير البلاغيين وتصنيفاتهم ، وقد أشار أحد المحدثين أيضاً إلى أن " المعانى التى تشير إليها هذه الأدوات ليست محصورة فيما ذكرنا ولا فيما ذكر غيرنا ، وإنما هى متولدات تشيعها السياقات والصيغ ... إن قولنا إن الاستفهام هنا للإنكار أو للاستبعاد أو التقرير أو غيره ليس فى حقيقته تحقيقاً لفقة الدلالة ، وإنما هو إشارة عامة إلى المرمى العام من السياق ، لأن الدلالة ذات مذاق يختلف عن مجرد الإنكار أو الاستبعاد أو غيرهما "[٧٢] لكن هاتين الإشارتين لاتعدوان أن تكونا دليلاً على قصور الدرس البلاغى قديماً وحديثاً عن الوقوف على دلالات هذه التركيب فى معالجاتهم التطبيقية واكتفوا بالقاعدة والشاهد المجتزأ ، ظناً بأنه يمكنهم حصر دلالاته والإحاطة بها .

* * *

أتامرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب ؟ " [٩٦].

ومما يدل على عدم الدقة فى هذا التعميم الذى أطلقه أنه راح ينقض مقولته تلك فى حديثه عن الاستفهام والانفعال فى فكرة مستقله بعنوان " الانفعال وأسلوب الاستهام " التى ناقش فيها تقسيم أحد الباحثين للاستفهام إلى ثلاثة أنواع " الانفعالى ـ التعليمى ـ الاستخبارى " [٩٧] ، راح ينقض مقولته تلك لا لينفى الضيق الذى قال به آنفاً ، ولكن لينفى الانفعال مطلقا عن السؤال فى العديد من الشواهد التى أوردها الباحث المذكور وبعضها سؤال من الله للخلق ، نحو قوله تعالى " هل جزاء الإحسان إلا الإحسان " [٩٨] ، وبعضها حكاية عن الخلق نحو " قالوا : سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين " [٩٩].

نستخلص من هذه الإشارات ما يلى : ـ

١. التفات أبى هلال العسكرى إلى البعد النفسى لإثبات السؤال على الخبر الصريح فى الدلالة على الخبر وفى ذلك مراعاة للبعد النفسى للسؤال فى بعض استعمالاته التى يتحقق فيها التلطف بين السائل والمسؤول.

٢. التفات عبد القاهر الجرجانى إلى أثر السؤال الذى لا يتوفر للتراكيب الأخرى فى دلالة الإنكار فى نفس المخاطب، وإشارته إلى البعد النفسى للسؤال فى كيفية تفاعله مع نفس المخاطب.

٣. التفات د. محمد أحمد أبو الفرج ود. أحمد ماهر البقرى إلى البعد الانفعالى النفسى عند المخاطب مع الاحتراز من التعميم الذى ورد فى معالجتيهما لهذه القضية.

ولكن هل يقتصر البعد النفسى على هذه الملاحظات ؟

لقد سبقت الإشارة إلى أن السؤال يتمتع بثراء فى الدلالات والإيحاءات تستعصى على التحديد لكثرتها وغزارتها واختلاطها واشتابكها ، وبذلك يتجاوز السؤال كل تحديد ومحاولة تصنيف ، ولعلّى لا أبالغ إذا زعمت أن كل سؤال له خصوصية فى سياقه التى لا تكون لسؤال غيره ، نعم قد تتشابه الأسئلة وتتشابه بعض السياقات بيد أن خصوصية ما تظل تميز كل سؤال فى موضع ما عن الآخر ، وسنعرض لبعض الشواهد على هذا بعد أن نلقى الضوء على البعد النفسى للسؤال بوصفه سؤالاً فحسب لا بوصفه سؤالاً عن كذا أو يفيد كذا .

إن السؤال يثير رد فعل تلقائى عند المتلقى فى محاولة الإجابة ، فالمرء يسأل ليجيب أو ليقف وجهاً لوجه مصطدما بعدم معرفة ما هو مسئول عنه ، أو ليقف مستسلماً مبهوراً أمام ما يحمله عليه السائل من إجابة ولايطلب من المخاطب سوى الإقرار بها ، وأمام ما يطرحه من إجابة قد تعقب السؤال بعد أن أثير باحتجاب هذه الإجابة عنه ولو للحظة خاطفة تتحدد فى فترة قراءة السؤال أو سماعه ، ومن هنا كان السؤال أكثر التراكيب اللغوية الفنية استدعاءً للمثيرات عند المتلقى ، فهو يمارس إثارة الدهشة الناجمة

مهما يكن نوعها فى بعض مواضع استعمال تركيب السؤال ، أو لأن هذه التراكيب الجاهزة تقف عاجزة عن تحقيق ما يمكن أن يحققه السؤال فى بعض مواضع الاستعمال الأخرى ، وبذلك يصبح ذلك العجز دالا بذاته ، لأنه ليس عجزاً بمعنى الخور والضعف وعدم القدرة بقدر ما هو تجسيد للعجز

فى كيان لغوى دال بذاته ، أى بوصفه هذا الكيان أو التركيب اللغوى بالتحديد ، ومما ينضاف إلى ذلك من ملابسات تخلق التركيب وعناصره اللغوية المختلفة وصيغه الصرفية وسياقه ، أضف إلى ذلك اعتبار طرفى الخطاب فى السؤال ، ولنتأمل بعض نماذج السؤال فى الخطاب الشعرى على هدى من هذه الملاحظات :

يأخذ السؤال شكلاً مكثفاً فى بيتى أبى فراس الحمدانى :

تُسائِلُني من أنتَ ؟ وهي عليمـــــةٌ
وهـــلْ فتىً مثلي علـــى حالِهِ نُكْـــرُ ؟

فقلتُ كما شاءتْ ، وشاءَ لها الهوى
قتيلُكِ ، قالتْ : أَيهمْ ؟ فهـــمُ كُثْـــرُ (١٠٠)

فالمبدع هنا (المرسل) هو الذى يوجه إليه السؤال على لسان المستقبل فى أصل تكون الحوار . والسائلة - فى ملاحقتها إياه بالسؤال - تطارده بدلالات التجاهل يبدو ذلك للوهلة الأولى فى استعماله الفعل المضارع (تسائلنى) الذى يدل على استمرار السؤال من قبلها ، وهو يحاول بالسؤال مواجهة السؤال ، بيد أنها مواجهة خانعة لأنه ينعطف بها على نفسه أكثر من توجهه بها إليها ، ليتجسد أمامنا - بالسؤال - أقصى درجات الترفع والتجاهل والتنكر فى مقابل أقصى درجات التهالك والتطلب .

فعندما لا يجديه رد السؤال بسؤال ، وهو الطالب الساعى المتلمس لوصلها ، يرضخ إلى الإجابة الخبرية المباشرة قائلاً : قتيلك ، ويؤكد هذا الرضوخ والتهالك أنها عليمة بتلك الإجابة ، وأن هذه الإجابة إنما جاءت نزولاً على مشيئتها ومشيئة الهوى لها بالتحكم الذى أوقفه موقف الخنوع والرضوخ ، ولكن هذه الإجابة الخبرية القاطعة لا تجدى معها أيضاً ؛ فهـــى ممعنة فى تعاليها مسرفة فى تجاهله ، لذا تصدمه مرة أخرى بالسؤال : " أيهم " وتؤكد على ذلك بالخبر الصريح " فهم كثر " لتجعله رقماً مهملاً فى كم هائل من طالبيها والمتهالكين دون أعتابها .

ولكن البيتين ينتقلان إلى مستوى آخر من الدلالة بانتقالهما إلى مستوى آخر من الخطاب ، فالبيتان بما يحملان من خطاب داخلى بين الشاعر وصاحبته يمثلان - فى الوقت نفسه - خطاباً آخر للمتلقى الذى يقف - بأدواته وثقافته - على تمثل حال الشاعر من خلال استنطاق هذه الأدوات التأثيرية التى اعتمد عليها الشاعر فى البيتين ، والتى كان للسؤال الحضور الأكبر فيها .

ويمثل السؤال عند المتنبى اصطداماً عنيفاً بواقع يعانده ويجافيه فى الأبيات اللصيقة بذاته ، فيتجسد هذا الاصطدام فى دلالات التهالك والضعف التى ينقلها السؤال للمتلقى ، والتى يختلف

بدلالات الترقب واللهفة لغلطها وخروجها عن رتابة موقفها ، ويضع الشاعر فى البيت الأخير نفسه هدفا لملمات الدهر ونوائبه ، فهى جميعها عنده مقيمة لا تفارقه ، وهو يرى منها ومن نفسه ما كشف عنه فى السؤال الذى يبين مدى الضجر الذى يسيطر على نفسه ، وذلك كله يجتمع فى نهاية الأمر على تكثيف دلالة العجز فى مواجهة هذه المواقف العنيفة القاسية .

ومع ذلك يظل هذا القول غير مطلق ، فليس السؤال دائماً دالاً على العجز أو كاشفاً عن عجز فقط ، فإن تركيبة لافتة تبرز فى بعض تكوينات السؤال ؛ لتجاوزه ذلك الذى أشرنا إليه من قبل ، وتبدو غرابتها فى إتيان السؤال فيها متبوعاً بالإجابة ، ويبدو الموقف أمام هذه التراكيب أكثر إدهاشاً عندما تكون الإجابة ليست مجرد اقتراح أو احتمال أو إجابة مشكوك فيها ، بل تأتى قاطعة صارمة إذ لا يحتمل السؤال سوى تلك الإجابة الوحيدة التى ينطق بها النص ، مثال ذلك قول الشاعر أمل دنقل :

آه ، من سوف يرفع فى غد هامته غير من طأطأوا حين أز الرصاص ؟
ومن سوف يؤى الأرامل غير من سيؤول إليه خراج المدينة ؟ (١٠٤)

فالسؤال هنا عن العاقل ، إذ استعمل الشاعر فيه (من) التى يطلب بها التصور ، ولكن الشاعر لايلبث أن يقوم بتعيين المطلوب ، فالسؤال هنا ليس اصطداماً بما يعجز الشاعر عن الإجابة عنه ، ولكنه مع ذلك لا ينفصل عن دلالة العجز ، ومصدر العجز هنا يتضح من الاعتراض الضمنى الذى تحمله علاقة التضاد التى تكونت منها بنية السؤال بين (يرفع ـ طأطأوا) ، فهو يقف على الإجابة ويوقف المتلقى عليها ، ثم يتجاوز ذلك إلى حمل المخاطب على رفض الواقع بوضعه وجها لوجه أمام التناقض الذى يسلم إسلاماً تلقائياً إلى الرفض ، إن دلالة العجز هنا كامنة فى رفض الشاعر لواقع لا مناص من الاعتراف به ، ولا حيلة له سوى الإعلان عنه ، ومن هنا تبرز دلالة التثوير ـ التى يبثها الشاعر فى المخاطب ـ على الواقع المرفوض ، وفى مقابل دال العجز يبرز دال القوة فى إحكام الصياغة بالسؤال الذى لا جواب له سوى ما طرحه الشاعر فى التركيب القصرى للسؤال ، فدلالة النفى لا تنفصل هنا عن أداة السؤال (من) التى تتبعها أداة الاستثناء (غير) لتسيطر دلالة القصر على التركيب فلا تدع أمام المتلقى سوى هذا الاختيار الوحيد ، وبتلك الإمكانيات التى توفرت للتركيب يظل التفاعل بين الدلالة والمتلقى قائما فى جدل لاينضب .

وهنا يبدو الموقف أكثر غرابة لسببين : أحدهما أن الدافع وراء السؤال ليس الجهل بالمسئول عنه لأنه معلوم يقينا ، والآخر أن الحالة التى دفعت الشاعر ليست الانبهار الذى يفتقد فيه القدرة على إبداع التراكيب الجاهزة ؛ لأنه مدفوع إلى السؤال والإجابة بثبات اليقين . بل إن جل جرارة الموقف تكمن فى هذا اليقين ، بل لعل الشئ الأشد إيلاماً هو ذلك اليقين الذى تنطق به الإجابة ، إذ لو انتفى اليقين وتشعبت الاحتمالات وغامت الرؤى لغابت بواعث الحرارة عن الموقف الانفعالى بعامة ، أضف إلى ذلك أن السؤال لا يعنى مجرد النفى أو التعجب ، أو ما إلى ذلك ، وبالتالى ينتفى إمكان حصر الأغراض التى يمكن

الروح بالجسد يقوى بقوته ، ويضعف بضعفه "[٤٢] ، لم يعد ثَمَّ مايبرر وجود هذا الفصل بين الفكرة المجردة (المعنى) والصياغة اللغوية (اللفظ) ، وبالتالى فلا معنى لأن تحتفظ البلاغة بهذه الثنائية لتدخل فى التصنيفات التنظيرية التى تعد أساس النسيج الذى يتكون منه العلم .

ولأن المقدمات حفلت بهذا القدر من الاضطراب فلا عجب أن نجد آثار ذلك فى التناقض الذى يقع فيه المؤلف إذ يعود فى الصحيفة ذاتها ليقرر بشكل مطلق دون تمييز بين النوعين المزعومين " والتقرير أحد المعانى التى يخرج إليها الاستفهام عن حقيقته التى تعنى جهل المستفهم بما يستفهم عنه ، وهذا ليس قائماً فى التقرير " [٤٣] لينفى بهذا القطع وجود دلالة الطلب فى الاستفهام التقريرى بنوعيه بإثباته معرفة السائل ونفى الجهل عنه .

السؤال والاستفهام :

هل يصلح مصطلح " السؤال " بديلاً عن مصطلح الاستفهام ؟

إن مشكلة المصطلح التى تطرح الآن فى الدراسات النقدية تولى جلى اهتمامها للتضارب الذى ينشأ من انبثاق مصطلح جديد فى الساحة النقدية ، وبذلك يحتل المصطلح الجديد حيزاً كبيراً فى الدراسات الحديثة ، يقف الاهتمام بالمصطلح القديم دون ذلك ، على الرغم من أن ما يعتريه من الخلط والاضطراب لايقل أثراً فى توجيه مسار الفكر الأدبى والنقدى عن المصطلح الجديد ، لعل المصطلح القديم أحرى بالنظر من المصطلح الجديد ، لأن المصطلح الجديد - باعتبار فى طور النشأة - تتلقفه الأقلام بالبحث والتفحص حيث إنه لما يتبوأ مكانه من الاستقرار والثبات ، ولأن هناك العديد من المصطلحات التى تستعمل بالمفهوم نفسه ، وبذلك يكون المصطلح الجديد فى بؤرة الحركة ، وربما أسهم - بشكل أو بآخر - فى إذكاء هذه الحركة وانبعاث حرارتها ، أما المصطلح القديم فقد اكتسب قدراً من الثبات - على الرغم من عدم خلوه من التضارب والتعدد أيضاً - والألفة تدفع إلى الاستقرار الذى هو من أخطر آفات العلم ، فالألفة تحول بتاب الفكر ويقعد به عن حركية المعرفة ، ويؤدى به إلى الاستكانة والرضوخ للمقولات الثابتة ، فيكتفى الدارسون المحدثون بتناقل المصطلحات القديمة باضطرابها وتضاربها دونما محاولة للنقض أو النقد أو المحاورة ، حتى غدا يقنع الدارس الحديث أن يشير إلى أن أحد القدماء استعمل المصطلح بمعنى كذا ، والآخر استعمله بمعنى كذا ، أو أن فلاناً استعمل مصطلح كذا والآخر استعمل مصطلح كذا للدلالة على مفهوم معين ، ولم ينتل حقل معرفى بهذا الداء قدر ابتلاء الدرس البلاغى قديماً وحديثاً ، الأمر الذى يجعل لإعادة النظر فى المصطلحات البلاغية أهمية لاتقل عن أهمية التفكير والتفحص فى المصطلحات الجديدة ، مادمنا نؤمن بأن البلاغة أداة نقدية ماتزال قادرة على العطاء فى مجال النقد الأدبى .

ومن ثم وجب علينا ألا نتلقى المصطلح البلاغى أو النقدى القديم بوصفه مسلمة لامجال للخوض فيها ، فذلك لن يزيد البلاغة إلا عقماً وجموداً ، والأجدى أن نتلقى هذه المصطلحات القديمة تلقى

السـؤال
رؤيـة أسلوبـية

لعل الملاحظات التى وقفنا عليها فى الصفحات السابقة تكشف لنا عن بعض إمكانيات السـؤال وخصوصيته وتميزه فى ذاته لما توفر له من إمكانيات التواصل بين المنشىء والمتلقى ، وتجدر بنا الإشـارة هنـا إلى أن محاولة تحليل التركيب النحـوى مجتزأ مـن سياقه أمـر لا تتنكـر لـه الأسـلوبية بوصفهـا أداة نقديـة ـ تعايشت مع البلاغة أو قامت على أنقاضها ـ فقد تعرض الأسلوبيون للتركيب النحوى بوصفه اختيـاراً بـين عدة بدائل ، فالأسلوب فى أحد مفاهيمه " يمثل اختياراً بين مدخـر مـن الإمكانيـات " [٥٨] ومـن هنـا كـان تفريق (بالليى) بين عدة مستويات من الخطاب : " فعندمـا أعطـى أمـراً أسـتطيع أن أقـول : افعلـوا هـذا ، بدون أى نبر ، أى بالبقاء على مستوى الإيصـال البحـت ، أو أقـول : أوه افعلـوا هـذا ، أو آه ! إذا أردتم فعل هذا ، أو : أوه ، نعم افعلوه ، أكون بهذا قد عبرت عن رغبتى ، وعن أملى ، وعن نفاد صـبرى " [٥٩] وعلى أساس من هذا التفريق جاء حديثهم عـن المضمـون الوجدانـى للغـة بـين تركيـب وآخـر مـن البدائـل الممكنة .

أما تناول البلاغة العربية للسؤال بوصفه (أسلوب استفهام) فهو لا يقتصر ـ كما أشرنا ـ علـى تحليل التركيب النحوى الواحد مجتزأ من سياقه ، ولكنه يتعدى ذلك إلى معالجة نمط من التراكيب النحوية ، ولكن هذه المعالجة ـ مـع تجاوزهـا هـذا ـ جـاءت عـاجزة علـى مستوى التحليـل والإجـراءات التطبيقيـة ، لانصرفها إلى متابعة الشاهد والمثال والجملة " [٦٠] عـن النظـرة الكليـة للـتركيب فـى النـص التـى يمكـن أن تؤسس لنظرية بلاغة النص ، ولعل ذلك ما قصده د. رجاء عيد ببلاغة القصيدة " التى تخوق على شـرائط البلاغيين " [٦١] ، وقد وقفنا على جانب من ذلك .

بين هاتين النظرتين تقف محاولتنا هذه ، بوصفها محاولة تنظيرية تطمح إلى تأصيل معالجة نمـط مـن التراكيب النحوية على هدى من معطيات الأسلوبية الحديثة ، واضعة فى حسابها الوجود الفعلـى للـتركيب فى النصوص ، وتجاوزه للوجود النظرى فى مقولات البلاغيين التقليديين .

يتوزع الدرس الأسلوبى بين عدة أبعاد ، استقل كل بعد منها باهتمام بعض الباحثين والدارسـين على المستويين النظرى والتطبيقى ، وبقيت هذه الأبعاد مثارةً بوصفها قضايا الأسـلوبية التـى تعايشـت فـى مجال الدرس الأسلوبى ، وهذا ليس معرض الحديث التفصيلى عن الأسلوبية وقضاياها ، فسنقتصر هنا علـى القضايا التى تتصل اتصالاً حميماً بموضوع دراستنا هذه ، والتى تتلخص فى القضايا الآتية : ـ

١ ـ السؤال وفكرة الانحراف الأسلوبى .

٢ ـ السؤال بوصفه اختياراً بين بدائل عديدة .

٣ ـ السؤال بوصفه ظاهرة أسلوبية فى النص .

ومع أن البلاغيين أوقفوا جهودهم عند حدود " الاستفهام " بوصفه تركيباً جزئياً يحتوى عليه النص القرآنى والشعرى والخطابى وغير ذلك فإن معالجاتهم – فى ظل هذه الملابسة – لم تكن من الدقة بحيث إننا إذا اعتبرنا هذه النظرة هى المرجعية التى تناقش معالجاتهم على أساس منها فإن ذلك لايدفع عن هذه المعالجة القصور والخلل ، ثم ليقف هذا القصور شاهداً على تجاوز التركيب واستعصائه على التحديد ، الأمر الذى يضيف إلى خصوصياته وتميزه ميزة أخرى ومظهراً آخر من مظاهر تجاوزاته العديدة.

إن الاضطراب فى معالجة البلاغيين للتركيب بوصفه أسلوباً مجتزأً من سياقه يتمثل فى عدة مواقف نشير إلى بعضها على سبيل المثال لا الحصر. قبل أن نشرع فى الرؤية التى تسير على هدى من مقولات الأسلوبية الحديثة وقضاياها .

اختلط الأمر على السكاكى فى حديثه عن استعمال " أنى " فذكر أنها تستعمل بمعنى كيف واستشهد على ذلك بقوله تعالى " فأتوا حرثكم أنى شئتم " [٦٥] ثم قال " أى : كيف شئتم " [٦٦] ، وتبعه فى ذلك القزوينى فى التخليص والإيضاح كما تبعه شراح التلخيص[٦٧] ومع احتمال كلمة (أنى) معنى (كيف) فإنها بعيدة عن دلالة الاستفهام ، لأن (كيف) ليست دائماً استفهامية ؛ فهى تستعمل شرطية كما تستعمل للدلالة على مطلق الحال .

وقد أشار د. محمد عبد المنعم خفاجى فى (شرح الإيضاح) إلى القول بشرطية (أنى) هنا " وقيل إنها بمعنى متى وأنه معنى ثالث لها "[٦٨] وغنى عن التنبيه أن استعمالها بمعنى متى أيضاً ليس من الاستفهام فى شىء فى هذا الموضع .

ويبدو هذا الاضطراب واضحاً أيضاً فى معالجاتهم تلك فى التضارب بين أقوالهم فى تصنيف بعض النصوص ـ أو قل الشواهد المجتزأة من سياقاتها ـ وقد جاء هذا التضارب تبعاً لتضاربهم فى الأصول النظرية التى صنفوا التركيب فى بعض المواضع على أساس منها.

ذكر الزركشى فى كتابه " البرهان فى علوم القرآن " أن " هل " لاتقع تقريراً كما يقع غيرها مما هو للاستفهام " ثم قال " وقال الكندى : ذهب كثير من العلماء فى قوله تعالى (هل يسمعونكم) إلى أن (هل) تشارك الهمزة فى معنى التقرير والتوبيخ ، إلا أنى رأيت أبا علّى أبى ذلك ، وهو معذور، فإن ذلك من قبيل الإنكار ، ونقل الشيخ أبو حيان عن سيبويه أن استفهام التقرير لا يكون بـ (هل) ، إنما تستعمل فيه الهمزة ، ثم نقل عن بعضهم أن هل تأتى تقريراً فى قوله تعالى : " هل فى ذلك قسم لذى حجر "[٦٩] وقد التفت عبد القاهر الجرجانى إلى إمكان إفادة التركيب أكثر من دلالة فى بعض استعمالاته وهذا وإن كان إدراكا لتجاوز التركيب للتحدد فى دلالة واحدة ، فإنه لم يجد من عبد القاهر ومن تلاه اضطراداً فى تحليل هذه التراكيب والوقوف على أقصى إمكاناتها فى إبداع الدلالات ، ففى تعليق عبد القاهرعلى قوله تعالى حكاية عن قوم إبراهيم : " أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم " يقول بعد تحليل الاستفهام "

الاختيار والبعد النفسى للسؤال : -

إن ميزة جوهرية من ميزات السؤال فى وجوده فى اللغة الفنية يتمثل فى البعد النفسى الذى يتخذه أو يكشف عنه ، يتخذه فى طريق التأثير فى المتلقى إقناعياً وجمالياً ، ويكشف عنه بالنسبة للمبدع توتراً وانفعالاً ، فالتجاء المبدع إلى السؤال من بين الخيارات والبدائل اللغوية الأخرى ، ليس مجرد صدفة عشوائية ، نعم قد لا يكون وراءها عقل أو فكر يوجه عملية الاختيار لتتم بوعى كامل ، ولكن انتفاء ذلك لا يعنى عدم وجود علل وراء اختيار السؤال .

إن ذلك لا ينفصل بحال عن البحث الأسلوبى ، إذ يدخل فى عملية الاختيار بين البدائل ، ولا شك أن البعد النفسى يعدُ أحد علل ذلك الاختيار ، ويتشكل البعد النفسى للسؤال فى مستويين :

- مستوى المبدع ودلالة اختيار السؤال من بين الأساليب والبنيات النحوية الأخرى .

- ومستوى المتلقى ومدى فاعلية السؤال دون ما عداه من هذه البدائل ، ليتخذ سبيله إلى نفس المتلقى تأثيراً وإقناعاً ، يتأسس ذلك على ما يكتنزه السؤال من شحنات انفعالية موجهة إلى التركيب (من المبدع) ، أو ناتجة عن التركيب (فى المتلقى) .

قد يكتنز السؤال وسائل تأثيرية تمارس فاعليتها فى المتلقى ، بشكل مُجْتَمِعٍ ومطلق ، أى : بلا حدود أو انفصال ، إذ قد يتشعب السؤال بين عدة دلالات فرعية ، وقد يقصد منها فىْ الموقف الواحد دلالة واحدة ، ولكنه - مع ذلك - يظل ملتبساً بثوابت تأثيرية ناتجة عن رد الفعل التلقائى عند المتلقى لكون السؤال سؤالاً فحسب ، لا لكونه سؤالاً عن شىء بعينه ، أو لكونه دالاً على غرض بعينه ، ولهذه الثوابت التأثيرية كوامن عدة ترجع إلى البعد النفسى للسؤال .

وقد تنبه إلى ذلك البعد غير واحد من النقاد المحدثين ، فالتفت د. محمد العبد إلى القيم الأسلوبية التأثيرية للسؤال فى شعر (السياب) فى إشارته إلى أن السؤال تعبير عن التوتر والحيرة والتردد والخوف [٧٣] ، كما التفت د. صلاح فضل إلى تلك القيمة التأثيرية للسؤال فى تعليقه على بيتى المتنبى :

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً ... وآفتُهُ من الفهمِ السقيمِ

ولكنْ تأخذُ الآذانُ منه ... على قدرِ القرائحِ والعلومِ

فعلى الرغم من أن (كم) هنا خبرية فإن ذلك لا ينحيها تنحية كاملة عن دلالة الاستفهام ، وإذا توفر ذلك لـ (كم) فإنه لا شك يتوفر لغيرها من أدوات السؤال التى لم يصرح النحاة والبلاغيون بخبريتها ، يقول د. صلاح فضل فى تعليقه : " ... وهى كم الإخبارية التى تفيد الكثرة وتوهُّم الاستفهام " [٧٤] ، فجمع بين دلالتى الخبر والسؤال فى رؤية البيت .

وقد كان لأداة السؤال (كم) حضورها فى قصيدة أحمد عبد المعطى حجازى ، (بحارة ماجلان)

اتجاهـــاً نفسياً فى دراسة الأسلوب " يعثر على محوره الصحيح عندما يتم من خلال عملية التحليل اللغوى للصور الأدبية ودلالاتها النفسية والاجتماعية والتاريخية ومدى مـا تقدمـه كـل هـذه العوامـل فـى التكويـن الجمـالى للصـورة " [٧٩] ، ذلـك التكويـن الجمـالى الـذى ينتـج عنـه الإمتـاع أو التأثير ، لأن كـل أسـلوب يستهدف أثراً مخالفاً : " الأسلوب المتدنى يخبر ، والأسلوب المتوسط يمتع ، والأسلوب الرفيع يؤثـر " [٨٠] ، والنوعان الأخيران يدخلان فى الدراسة الأسلوبية للنصوص الفنية من وجهة نظر نقدية ولا تتخلـى مفـاهيم الأسلوبية عن ذلك ، فهى عند (بالى) " دراسة بوقائع التعبير اللغوى من زاويـة مضمونهـا الوجدانـى ، أى فى معارضتها لمضمونهـا العقلـى وهـذا التميز هـو الأساس لما نسميه الوظيفة المضاعفة للغـة " [٨١] ، هـذه بعض الأسس التى تسهم فى تكوين أساس نظرى لدراسة البعد النفسى للسؤال بوصفه ظاهرة تتحقق فيهـا جوانب عديدة من اهتمامات الدرس الأسلوبى ، وسنبدأ بمناقشة هذه الفكرة فى تناول البلاغيين العرب .

إن إدراك البعد النفسى للسؤال البلاغى ليس أمراً مستحدثاً لم يلتفت إليه أحـد مـن قبـل ، لأنـه كائن فى مقولات البلاغيين وتصنيفاتهم ـ على الرغم من ملاحظاتنا حولها ـ فهذا البعد النفسى متغلغـل فـى تلك المقولات لأنه لا ينفصل بحال عـن الوجـود الفعلى للسـؤال ، ولكـن ذلـك لا يعنـى أن البلاغيـين قـد أحاطوا بهذا البعد النفسى أو أدركوا خصوصية وتميزاً ما للسؤال من خلاله ، لأنهم لم يقوموا بتحليـل هـذا البعد النفسى فى السؤال ، وفرق كبير بين إدراك خاصية لامناص من إدراكهـا ، وبـين تحليلهـا تحليـلاً يفـى باستنباط النتائج العملية ، ولذلك جاء إدراك البعد النفسى للسؤال متمثلاً فى عدة ملاحظات حملتها كتـب البلاغة قديماً وحديثاً ، تكاد تنحصر فى حديثهم عن دلالة السؤال فى خروجه على مفهـوم الاسـتفهام ، إذ اتخذوا السؤال فى بعض الأحيان دليلاً على ما يـدور فـى نفـس سـائله أو مـاتنطوى عليـه هـذه النفـس مـن افتخار وتفجع وتمنى واستبطاء وغير ذلك ، واتخذوه ـ أحيانا أخرى ـ دليلاً على الأثر النفسـى الـذى يحدثـه فى المخاطب ، أو الذى يهدف السائل إلى إحداثه فى المتلقى ، حدث أو لم يحدث ، فقالوا بكون الغرض من السؤال التبكيت ، التهويل ، التحضيض ، التهكم والاستهزاء ، التوبيـخ ، ولكنهـم لم يتجـاوزوا ـ غالبـاً ـ مهمة الرصد لبعض ما يفيـده السـؤال مـع ذكـر الشـواهد عليـه ، فـلا يكـاد يسـتثنى مـن ذلـك إلا بعـض التعليقات التى تبين عن إدراك ذلك البعد للسؤال ، نقف منها هنا على تعليقين :

الأول : لأبى هلال العسكرى فى حديثه عن التلطف إذ جعل منه الخـبر والوصـف فـى صـورة الاستفهام ، ولكن إن كان أبو هلال قد وفق فى هذا الملمح فإنه لم يوفق فـى الشـواهد التـى سـاقها عليـه ، لأنه عَرف التلطف بقوله : " هو أن تتلطف للمعنى الحسن حتى تُهجّنه ، وللمعنى الهجين حتى تحسنه " [٨٢] ثم أتى بالشاهد على التلطف غير واف بذلك التقديم الذى قدم بـه عـن مفهوم التلطف عنده ، إذ استشهد بقولـه تعالى : " أليس فى جهنم مثوى للكافرين "[٨٣] وليس هذا السؤال من قبيل التلطف فى شىء ، فالسؤال هنا جاء فى معرض العقاب والتهديد به ، فجاء ذكر جهنم وعيـداً للكافرين ، ولا معنى لأن يقـال فى ذلك تلطف للمعنى الهجين حتى يحسن ، أو تلطف للمعنـى الحسـن فيهجـن ، وكيـف يكـون التحسـين لجهنم التى يتوعد بها الله الكافرين ، وهل الحديث عن الكافرين بحاجة إلى تلطف أو تحسين .

فإنها قد جنحت إلى قصر وتعميم ليس لهما ما يبررهما ، فجعلت البعد النفسى مقتصراً على الضيق الذى يبلغ من نفس السائل مبلغه ، مع أن الأبعاد النفسية للسؤال - الذى يعد النفى إحدى دلالاته - كثيرة متشعبة متشابكة مختلطة ، أما التعميم فلكونها جعلت الضيق بعداً نفسياً عاماً فى السؤال الدال على النفى بشكل مطلق ، مع أن العديد من الأسئلة الواردة فى القرآن ليست حكاية عن الخلق ولكنها من الله مباشرة ، فكيف يقال فيها بهذا البعد النفسى الذى ذكره المؤلف ؟ ولنتأمل الشواهد التى ذكرها المؤلف فى معالجة هذه الجزئية لنتبين حقيقة الخلل فى هذا التعميم فقد استشهد بقوله تعالى : " ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها " [٩٠] وبقوله تعالى : " ومن أصدق من الله قيلاً " [٩١] ، وبقوله تعالى : " ومن أحسنُ قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين " [٩٢] .

أضف إلى ذلك عدم الدقة فى اختيار الشواهد ، واعتماده فى بيان ذلك البعد النفسى على عناصر ومعطيات خارج الحدث الألسنى ، فقد استشهد بقوله تعالى : " حكاية عن لوط عليه السلام " أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ؟ بل أنتم قوم عادون " [٩٣] وفى تعليقه على الآيات حدد دلالة السؤال فى أمور ثلاثة :-

١. تقرير حقيقة انشغال الرجال عن أزواجهم بالذكران أمثالهم .

٢. التعبير عن نفسه التى لم تطق أن ترى فعلتهم تلك تشيع فى المجتمع الإنسانى ، ولهذا قال : " إنى لعملكم من القالين " .

٣. الدعوة إلى سلوك السبيل السوى .

ثم علق بقوله : " وهكذا كل استفهام استنكارى يحمل العناصر الثلاثة وقد تزيد ، بينما يقتصر أسلوب النفى عادة على الأول فحسب " [٩٤] والواقع أنه ليس فى السؤال ولا فى تعليقه عليه ما يدل على النفى على الإطلاق ، والدلالة الواضحة المباشرة التى تفهم من السؤال تتحدد فى النهى ، ولا تنفصل دلالة النهى هنا عن الاستنكار ، فهو ينهاهم وينهرهم لأنه ينكر عليهم ذلك الفعل ، ويتضمن السؤال إلى جانب ذلك دلالة التوبيخ والتعنيف ، بالإضافة إلى ما ذكره المؤلف من دلالة على التعبير عن نفسه والدعوة إلى السلوك السوى ، ويحاول المؤلف تبرير دلالة السؤال على النفى بقوله : " ولقد أدخل الاستنكار فى باب النفى على اعتبار أن المتحدث إنما ينفى المستنكر منه أن يكون مما يستوجبه العقل أو الخلق الإنسانى " [٩٥] ، ولكن ما الداعى لمحاولة التأويل لتلاءم دلالة السؤال مع النفى مادامت دلالة النهى واضحة جلية ليست بحاجة إلى مبررات ، يصدق ذلك - فى الغالب - على السؤال الموجه للمخاطب الذى استخدمت الهمزة بعدها فعل مضارع فيه تاء المضارعة الدالة على إسناد الفعل للمخاطب نحو : "

عن قطع رتابة التلقي المستكين ، ورضوخ المتلقي لخمول وطأة (استقبال) التراكيب الجاهزة ، ويمارس فعل المفاجأة التي تنتهك جمود التوقع لتنشأ جدلية حيوية حركية بين المبدع والمتلقي عبر تركيب السؤال ، ذلك الذي يجعل المتلقي فاعلاً أصيلاً في التجربة الابداعية بما تتضمنة من جدلية لاتزول بين المبدع والمتلقي ، فإذا كان المنوط بالعمل الفني انتهاك رتابة الألفة بالكشف عن رؤى جديدة مهما اختلفت أسباب الصياغة ، والسير بالمتلقي في عالم جديد من الرؤى والعلاقات ، فإن أقصى درجات التماشج بين أطراف الدائرة (المبدع ـ المتلقي ـ العمل الفني) تتحقق حين يوضع المتلقي أمام سؤال لاشك في اختلافه عن الأساليب التقريرية الإخبارية ـ من ناحية ـ أو الأساليب التصويرية البيانية ـ من ناحية أخرى ـ لأن تلك الأخيرة لاتختلف عن سابقتها في كونها تراكيب جاهزة مهما كانت جدتها وطرافتها ومهما توفر لها من القدرة على الخلق والابتكار. فإنها تمنح المتلقي شيئاً في بؤرة الخلق ولكن دون أن تضعه هو بذاته في هذا الشئ أو في مواجهته .

إن السؤال – في تجاوزه المبدع إلى المتلقي – لا يكشف – فقط – عن رؤى المبدع وموقفه من الأشياء ، ولكنه يحمل المتلقي على رؤى ، فما عداه من التراكيب تصل

إلى المتلقي بدلالاتها جاهزة ، أو قل بدلالة مغلقة ، أما السؤال فيصل بدلالة ناقصة ، وإنما يأتي اكتمالها على لسان المتلقي أو في ذهنه ، ولكن ليس المقصود بالنقص نقصاً حقيقياً ، فهو نقص في الوجود اللغوي فقط لأنه قائم على مستوى الدلالة ، إن ذلك المعنى المفهوم وراء خاصية التركيب أقوى وجوداً من المعنى القائم في الوجود اللغوي نفسه ، لأن ذلك الأخير ينشأ ـ مطلقاً ـ من المبدع ، أما المعنى الكائن في خاصية التركيب فالمتلقي محمول بقوة الخاصية على الإقرار به ، وكأنه هنا شريك في انتاج دلالته ، ومن ثم تقوى عوامل الالتحام والتواصل بين المرسل والمستقبل ، ولا مرد لذلك سوى خصوصية خاصية تركيب السؤال.

فإذا كانت البلاغة ـ في أحد مفاهيمها في التراث ـ أن يتمكن المعنى في نفس المتلقي كتمكنه في نفس المبدع فلا شك أن درجة عالية من التمكن ـ لا للمعنى فقط بحسب المفهوم البلاغي القديم ، ولكن ـ للمعنى ملتبساً بحرارة الموقف الانفعالي الذي ولد فيه تنتج عن استخدام صيغة الاستفهام ، ومن هنا نقول بقلة جدوى اقتصار النظرة إلى السؤال على كونه مجرد نوع من الأساليب الإنشائية ـ على حد تعبير البلاغيين العرب ـ لأن محاولة استكشاف البعد النفسي لتركيب السؤال أجدى في مقاربة النص وأكثر إثراء لعملية النقد إذ لا تقف به عند حدود النص ـ بوصفه مادة لغوية ـ لتتجاوز ذلك بالبحث عن كنه التركيب وعلة فاعليتها .

إن أقصى درجات التوتر قد لاتدع للمبدع فرصة لتجسيد لغوي في عمل فني ، فالانفعال الحاد قد يعقد اللسان فتتشابك الأحاسيس في اختلاط واضطراب ، ومن هنا يبين الاتكاء على السؤال عن حدة الموقف وحرارته التي قد تصل بالشاعر إلى حد الانهيار ، فجوهر السؤال لا ينكشف بالنظر إليه على أنه مجرد تركيب له فاعليته فحسب ، بل لأنه يلفت إلى نوع من عجز المبدع عن إعداد التراكيب الجاهزة ،

الطرف الآخر (المستقبل) فيها باختلاف المواقف ، ففى رثاء جدته يوجه إليها الخطاب بقوله :

هَبِينى أخذتُ الثأرَ فيــكِ من العِدا

فكيفَ بأخذِ الثَّأرِ فيكِ من الحُمّى ؟[١٠١]

فالشاعر هنا يدخل فى مواجهتين عنيفتين ، ويرجع عنفهما إلى الصعوبة والاستحالة ، فالمواجهة الأولى مع العدا ، ولكن من هم هؤلاء العدا ؟ إنهم الناس الذين يتوجس منهم المتنبى دائماً ، لأنه يستشعر منهم الغدر والحسد بصفة دائمة ، وبذلك تبدو صعوبة هذه المواجهة ، ولكنها مع صعوبتها ممكنة ولذلك افترض الشاعر إمكانها بقوله : " هبينى أخذت الثأر فيك من العدا " ، أما المواجهة الثانية فهى ضرب من المحال ؛ لأنها مواجهة مع ذلك المرض الذى فتك بجدته ، واستحالة هذه المواجهة تحدث ذلك الاصطدام العنيف مع الشاعر والواقع ، وبذلك جاء السؤال " فكيف بأخذ الثأر فيك من الحمى ؟ " موضحاً موقف العنف النفسى الذى ينتاب الشاعر لاستحالة المواجهة ، وإذا أضفنا إلى ذلك الأخذ فى الاعتبار أن الطرف الآخر فى الخطاب (المستقبل) هو جدته المرثية ، أدركنا بذلك عنصراً آخر يؤكد الاستحالة التى تكشف - من جانب آخر - عن مدى الضيق والكبت الذى يعانيه الشاعر فى هذا الموقف .

وفى مظهر آخر من مظاهر الاصطدام بواقع اجتماعى مجافٍ للشاعر يكشف دلالة عناد الأيام وانتفاء الألفة مع من حوله يقول :

أما تغلطُ الأيامُ فىّ بأنْ أرى عدواً تُنائى أو حبيباً تُقَرّبُ[١٠٢]

فالسؤال هنا كشف عن حالة ليس موجهاً إلى أحد ، إنه سؤال فى المطلق لا نستطيع تحديد الطرف الآخر من الخطاب فيه ، فهو بذلك إعلان عن الرفض لهذا الواقع المعاند المجافى ، ولاشك أنه بعد ذلك دال على مدى ما يعانيه الشاعر من قسوة المواجهة وعنف الاصطدام.

وفى نبرة تهكمية يتوجه الشاعر بالخطاب إلى (الحُمّى) التى أصابته فى مصر بقوله :

أبنتَ الدهــــــرِ عندى كلُّ بنتٍ فكيفَ وصلتِ أنتِ من الزّحام ؟[١٠٣]

فوضع الشاعر همومه العديدة فى صياغة مجازية تهكمية تحمل فى طيها سخرية مريرة ، يؤكد ذلك اعتبار طرفى الخطاب ، ذلك الذى يؤكد بدوره على مدى الألم النفسى الذى تضيق به نفس الشاعر لكثرة الهموم والنوائب المتكالبة عليه ، فالسؤال فى هذه الحالات جميعها شديد الصلة بذات الشاعر ، فما كان أقرب جدته إلى نفسه ، الأمر الذى حمله على ذكر الثأر على الرغم من خلو الموقف من فكرة الثأر تماماً ، وما كان أقرب الهدف الذى سعى إليه يحدوه طموحه ورغبته الجامحة إلى نفسه ، ولكن الأيام لا تنيله ذلك ، فضلاً عن صنها بتقريب من يحب وإبعاد من يكره ، الأمر الذى جعله فى مواجهة معها ، فإن خروجها عن ذلك شذوذ عن قاعدة رتيبة كأنها الصواب الذى اعتادته معه ، وبذلك اكتنز السؤال

أن يرجع إليها السؤال فى غرض واحد ، فكيف يمكن حصر السؤال فى غرض واحد فى قول الشاعر :

* آهٍ منْ يوقفُ فى رأسى الطواحين ؟ (١٠٥)

لعل أول ما يتبادر إلى الذهن فى محاولة تحديد الغرض من السؤال هنا هو القول بأن غرضه النفى ، ولكن ذلك القول يستدعى التساؤلات التى أسلفنا الإشارة إليها عن إيثار النفى بتركيب السؤال على النفى الصريح ، ومحاولة توضيح ذلك تسلمنا إلى الحديث عن الأبعاد النفسية التى تتكشف من دلالات تركيب السؤال ، فلو استخدم الشاعر تركيب النفى الصريح " لا أحد يوقف فى رأسى الطواحين " لانتفى عن التركيب دلالة استمرار التفاعل والتوتر والثورة ، ولأبان هذا النفى الصريح عن استقرار من نوع ما ، ربما يكون استقرار الاصطدام بالواقع ، ربما يكون استقرار الرضوخ لهذا الواقع ، ربما يكون استقرار اليأس الذى لا يجد الإنسان منه بداً ، وربما يكون ذلك كله .

أما تركيب السؤال فهو يحقق دلالة التشوف مع التحقق من استحالته فاليأس قائم والإحساس بمرارته قائم أيضاً فى تركيب السؤال ، الصراع قائم والفشل قائم لا يصل الشاعر به ولا يصل هو بالشاعر إلى برد الاستقرار أياً كان نوع هذا الاستقرار ، لتبقى جذوة السؤال متقدة فى نفس الشاعر تنقل هذا البعد النفسى عبر الصراع المرير إلى المتلقى بنبضة وحرقته .

قد يكون القول بأن الغرض النفسى من السؤال إثارة الانتباه وتشويق المتلقى خلوداً إلى الدعة وراحة من التنقيب على العلل الفاعلة ؛ لأن القول بالإثارة والتشويق لم يعد شافياً ، لأنه بالضرورة يردف بسؤال آخر عن علة الإثارة والتشويق فى هذا النمط من الأسئلة ، إن الوسائل التأثيرية ـ المتمثلة فى الصيغ والتراكيب والسياق واعتبار طرفى الخطاب ـ يتحقق من خلالها ذلك البعد النفسى الذى يرتبط بالسؤال ، حتى فى اتخاذه هذا البعد الإقناعى العقلى الذى يحمل – من الوجهة النفسية – بعداً انفعالياً يجمع بين المرسل والمتلقى ليكون غرض السؤال الإثارة .

فالسؤال يفتح عالما من الرؤى حين يصدم المتلقى فى موقف تشعبت فيه الآثار بتشعب المؤثرات ، فما أبعد ما طلبه صاحبا يوسف ـ عليه السلام ـ فى السجن عن رده بهذا السؤال : " يا صَاحِبَى السجنِ أأربابٌ متفرقون خيرٌ أَمِ اللهُ الواحدُ القَهَّار ؟ " (١٠٦) فلم يقصد من ذلك السؤال سوى فتح هذه الرؤى التى أدرك غيابها عن أذهانهم ليثير فيهم التأمل الدافع إلى يقين يود أن يحملهم عليه وأن يقنعهم به ، ويستخدم إبراهيم ـ عليه السلام ـ السؤال سلاحاً قويا فى مواجهة جمع لايقوى على صده ، فيحيلهم إلى السؤال ، ليس بتركيبه ، ولكن فى إجابته عن سؤالهم يطلب إليهم توجيه السؤال إليهم " بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون " (١٠٧) ، لا لشىء إلا ليصدمهم ويدخلهم فى مواجهة مع أنفسهم ، ويستخدم أخوة يوسف الإحالة إلى سؤال دفاعاً عن أنفسهم ، ودفعاً لمظنة السرقة عنه " واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها " (١٠٨) ، ليتأكد بهذه السياقات أن

السؤال بوسائله التأثيرية هو في الوقت نفسه أمعن التراكيب في طاقته الإقناعية .

ثالثاً: السؤال بوصفه ظاهرة أسلوبية في النص .

إن دراسة السؤال بوصفه سمة أسلوبية بارزة في بعض النصوص تدخل في إطار الأسلوبية الوظيفية لا يجب أن تهدف إلى محاولات تحديد تنظيرية ، لأن تلك الدراسات تقوم أساساً على تجاوز السؤال – بوصفه تركيباً نحوياً – في الاستعمال الفني في النصوص للمقولات النظرية ، وتنطلق من أن كل نص كيان لغوي في ذاته ، وأن النص يقترح منهج معالجته وتحليله ، والسمة الأسلوبية الغالبة إحدى أكثر مقترحات النص فاعلية في عملية التحليل ، وبذلك يؤكد استكشاف إسهام السؤال – بوصفه سمة أسلوبية غالبة – في إبداع الدلالة على فكرة التجاوز ، ولا نقول تجاوزاً للمقولات البلاغية التقليدية التي تناولت السؤال فقط ، بل تجاوزاً لأي محاولة أسلوبية مزمعة لتحديد إطار نظري للسؤال لأننا " لن نستطيع أن نتصور علماً للنقد الأسلوبي ، لأن هناك من النقد ما يوازي عدده عدد النصوص " [١٠٩].

ومن ثم فلا ينبغي أن تخضع دراسة الوظيفة الفنية لنمط من الأساليب لثوابت علمية خضوعاً تاماً ، ولكنها تستند إليها بوصفها منطلقات فحسب ، ليبقى " الحدس والذوق حكمين وحيدين . على مستوى فهم النصوص وتقديرها " [١١٠] ، وذلك التحليل النقدي لنمط من الأساليب لا يقتصر على عمليات الحصر والإحصاء " بل لابد أن يبين أوضاعها المحددة ويكشف عن علاقتها المتناغمة أو المتنافرة بالتركيز على مظهرين : أحدهما معرفة التوظيف البلاغي لهذه الأشكال وقياس مداه ووصفه ، والآخر محاولة اكتشاف الأهمية النسبية لبعض هذه الأشكال في نص معين على ما سواه ودورها في تكوين بنيته " [١١١]

وينبغي أن ننبه إلى أننا لا نقصد بالسمة الأسلوبية هنا :السمة المميزة للمبدع ، الخاصة به ، فإن بعض المقولات النظرية للأسلوبية قد تنصرف إلى هذا القصد ، ففي تعليق (بيرجيرو) على السمة الأسلوبية يقول : " ... انطلاقاً من أدوات التعبير، يجب أن نميز الأسلوب منها جميعاً ، ولكن ألا نستطيع أن نفترض أن بعضها أكثر تميزاً من بعضها الآخر ، وأن عدداً صغيراً يكفي لبيان خاصية الأسلوب وفرادته – وليس ضرورياً أن تكون هذه أكثر بداهة . فبصمات اليد ، أو تلافيف الأذن عبارة عن سمات أكثر تميزاً من لون العيون أو طول الأنف " [١١٢] .

إننا نقصد هنا السمة الأسلوبية للنص والخاصية الفردية للنص ، على حد تعبير هنريش بليث [١١٣]، فإن ملابسات عديدة قد تؤدي إلى هيمنة إحدى السمات على بعض النصوص ، فعلينا أن نبين هنا فاعلية السؤال بوصفه سمة غالبة في بعض النصوص ، وينبغي أن ننبه أيضاً إلى أن تداخلاً ما ، بين هذا الجانب من الرؤية الأسلوبية – في محاولة تعليله – وفكرة الاختيار ، ففي الأسلوبية الوظيفية يكون على الباحث أن " يبين الأسباب المحددة للخاصية الأسلوبية ، أي المحددة للاختيار الواعي أو اللاشعوري لشكل محدد " [١١٤] فبالوقوف على علل الاختيار نضع أيدينا على فاعليات السؤال ، وبمعرفة فاعليات السؤال

نقف على علة الاختيار ، ولما كان النص – فى وجوده كياناً لغوياً – هو مادة الدرس الأسلوبى فإن البداية فى معالجتنا هذه تكون بمعرفة فاعلية التركيب فى انتاج الدلالات ، ومن ثم فإن التعليل يأتى تالياً دائماً ، حتى إذا بدأنا بطرحه على سبيل التصنيف والتمييز بين طاقات مختلفة للسؤال فى النصوص ، وحتى إذا جاء التحليل ملتبساً بالعلل كاشفاً عنها ، إذ قد يتعذر الفصل التام بينهما لأن علة اختيار نوع من الأساليب لا تنفصل عن دلالاتها .

وتأسيساً على ما تقدم فإن السؤال - بوصفه طاقة فاعلة فى إبداع الدلالات - حين يوجد على درجة من الهيمنة فى النص يتوزع وفقاً لخصوصية النص وملابساته الفريدة التى تميزه وتشكل وجوده الخاص ، ولسنا هنا بصدد تحليل كافة النصوص التى يشكل السؤال سمة سائدة فى بنيتها اللغوية ، ولذا نكتفى بطرح بعض النصوص التى تتفاوت دلالات السؤال فيها ، ولكنه مع ذلك يظل السمة المهيمنة ، ثم نعلق عليها تعليقاً مجملاً ، ثم نتبع ذلك بنموذج لتحليل أحد النصوص .

يتخذ السؤال فى (سورة الملك) حيزاً كبيراً بالنسبة لعدد آيات السورة ، فالسورة ثلاثون آية وقد ورد السؤال فى هذه الآيات ثمانى عشرة مرة ، وبالنظر إلى هذه النسبة يتضح أن السؤال فى السورة سمة أسلوبية سائدة ما فى ذلك شك ، وإن كان السؤال جاء متفاوتاً فى دلالته وفق التفاوت بين طرفى الخطاب ، فبعض الأسئلة موجه من الله إلى الخلق وبعضها محكى عن بعض الخلق ، ولكن تظل دلالة إثارة العقل ودفعه إلى التفكر أكثر حضوراً فى هذه الأسئلة ، فهى إما أن تدفع الإنسان إلى التفكير فى الحياة الآخرة وما يؤول إليه مصير الإنسان فيها وفقاً لعمله " ليبلوكم أيكم أحسن عملاً " ليتحدد بذلك علة خلق الموت والحياة ، وإلى هذه الحياة يكون السؤال تبكيتاً وتوبيخاً لفريق أساء العمل المشار إليه فى السؤال السابق ، وإن كان السؤال هنا محكياً عن بعض الخلق " سألهُمْ خزنتُها : أَلَمْ يأتِكُمْ نذير " وإما أن تدفعه إلى التفكير فى حاضره والظواهر الكونية من حوله " الذى خلق سبع سموات طباقاً ، ما ترى فى خَلْقِ الرحمن من تفاوتٍ ، فارجعِ البصرَ ، هل ترى من فُطور " ليكون السؤال هنا دافعاً إلى الإقناع إذا تأملنا التقديم له بالخبر ، ثم تذيل هذه الأسئلة بتوجيه السؤال الذى يقر الإنسان بعلم الله عز وجل " ألا يعلمُ مَنْ خلقَ وهو اللطيفُ الخبيرُ " .

ثم تتوالى الأسئلة فى تكثيف يلاحق الإنسان ويحاصره بحيث لا تخلو آية من سؤال فى الآيات من الخامسة عشرة إلى الآية الثانية والعشرين " أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى الْطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الْرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرُ (١٩) أَمَّنْ هَذَا الَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورُ (٢٠) أَمَّنْ هَذَا الَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل

لجُواْ فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٢) " ، فالأسئلة تتوالى لتثير فى الإنسان دلالة سعيه إلى الأمن وتحاصره بأن لا سبيل إلى الأمن الذى يرجوه إلا من الله ، ويضع السؤال الأخير الإنسان فى وضع مقارنة تثيره بنية التشبيه التى تكون منها السؤال ، إذ وضع ضدين على الإنسان أن يختار بينهما فى بنية تقريرية تحمل حملاً على اختيار محدد هو من يمشى سوياً على صراط مستقيم ، فإن هذا - ولا شك - أهدى من ذلك الذى يمشى مكبا على وجهه .

أما سؤال المعاندين المنكرين فيأتى محكيا فى قوله تعالى " ويقولونَ : متى هذا الوعدُ إنْ كنتُمْ صَادقين " ولا مجاراة لهم فى منطقة حوارهم ، فالآيات بعد ذلك لا ترد جواباً ، ولكنها تحملهم على الرضوخ - إن أرادوا - بترك مطلق الحرية لهم فى الاختيار ، إذ تكتفى الآيات بوضع الحقيقة فى مقول القول " قل : إنما العلمُ عند اللهِ ، وإنّما أنا نذيرٌ مبين " ثم تتكثف الأسئلة فى ختام السورة لتحيل الإنسان إلى التفكر والتدبر لتتأكد بذلك الحيادية التى تضمنها الجواب السابق المُملى على لسان النبى - صلى الله عليه وسلم - والتى جاءت دلالة القصر وتكراره فيها مؤكدة لهذه الحيادية فى التبليغ " قل أرأيتُم إنْ أهلكنى الله ومن معىَ أوْ رحِمَنا فمنْ يُجيرُ الكافرينَ منْ عَذابٍ أليم (٢٨) قُلْ هو الرحمنُ أمنّا به وعليهِ توكّلْنا فستعلمون منْ هو فى ضلالٍ مُبين (٢٩) قل أرأيتُمْ إن أصبحَ ماؤكُمْ غَوْرًا فمنْ يأتيكُمْ بماءٍ معين " (١١٥) ، فالأسئلة جميعها جاءت هنا مملاة على النبى - صلى الله عليه وسلم - تأكيداً لحياده فى التبليغ ، وتأكيداً للحرية فى التفكير ، بيد أنه تفكير توجهه تلك الأسئلة المتلاحقة ، وكأنى بالمراد هنا من تلك الأسئلة هو تحقيق مجرد التفكير والتأمل والتدبر الذى يسلم بالضرورة - فى إطار هذه الأسئلة - إلى الإقرار والإذعان ، ومن ثم تتجه دلالة السؤال - فى مجملها - نحو الغاية الإقناعية .

ويتخذ السؤال بعداً آخر عند (ابن الفارض) فى قصيدته التى مطلعها :

أبرقٌ بدا من جانبِ الغَور ، لا معُ   أمِ ارتفَعَتْ ، عن وجهِ ليلى البراقع

فالقصيدة تتكون من خمس وعشرين بيتاً وقد ورد تركيب السؤال فيها تسعة وعشرين مرة وهذه نسبة لافتة ، فلا يخلو بيت من الأبيات حتى الثانى والعشرين من سؤال ، وقد جاءت الأسئلة غير منفصلة عن دلالات الوجد الصوفي ، بل إنها لا تفهم وحدة متكاملة إلا بإرجاعها إلى دلالاتها الصوفية ، فقد يبدو فيها شيء من الرتابة إذا لم تؤخذ بهذا المنحى الصوفى الذى يمثل بنية باطنية لها تختلف عن بنيتها الظاهرية يقول الشاعر فى مستهلها :

أبـرقٌ بـدا من جانبِ الغَـور ، لا معُ   أمِ ارتفَعَتْ ، عن وجهِ ليلى البراقـع

أنارُ الغضا ، ضاءتْ ، وسلمى بذى الغضا   أم ابتَسَمتْ ، عمّا حكتهُ ، المدامــــع
أنشـــرُ خُزامى فاح أم عَرْفُ " حاجرٍ "   بأُمّ القُـــرَى ، أم عِطْرُ " عَزّةَ " ضائع
ألا ليتَ شِعــــرى : هل سُلَيْمَى مقيمةٌ   بوادى " الحِمى " حيثُ المُتَيَّمُ والـــع
وهـــل لَعلَعَ الرّعْدُ الهَتونُ بِلَعلَعِ   وهـــل جادَها صَوبٌ من المُزنِ هامع ؟

إن المعانى فى هذه الأبيات والتى تليها لا تنفصل عن دلالات الرموز الصوفية ، فليس ثم برق ولا نار غضا ولا نشر خزامى ، وليس ثم وجود لهؤلاء المحبوبات اللاتى أفرط الشاعر فى ذكرهن (ليلى ـ سلمى ـ عزة) ، ولكن هذه المعانى تأخذ أبعاداً أخرى تلون الدلالة الكلية فى القصيدة بصبغتها الصوفية ، " فالبرق هنا إشارة إلى تجلى الوجود الحق ، والغور إشارة إلى باطن الإنسان المشتمل على الروح ، والبكاء إشارة إلى الخوف من فوات اللقاء ، ونشر الخزامى إشارة إلى تجلى الحق على صفحات الكائنات ، ووادى الحمى إشارة إلى الروح الأعظم ... " (١١٦) ، تلك الدلالات الصوفية تتضافر لتجعل من السؤال المتردد فى القصيدة ترنيمة ثابتة رتيبة تؤكد على التشوق وتكشف عن حالة الوجد الصوفى المُلح فى طلب الوصل ، تلك الحال التى تكشف عن رجاء يصرح الشاعر به فى غبطة فى الأبيات الثلاثة الأخيرة من القصيدة :

لعلّ أُصَيْحَابى ، بمكّة ، يُبْرِدُوا ،   بذِكْرِ سُلَيْمَى ، ما تُجِنّ الأضالع
وعلّ اللُّيَيْلاَتِ التى قد تصرّمت ،   تعودُ لنا ، يوماً فَيَظْفَرَ طامـــعُ
ويَفْرَحَ محزونٌ ، ويَحْيَا مُتَيَّـــمٌ   ويأنَسَ مُشْتَاقٌ ويلتَذّ سامــعُ (١١٧)

وينشر السؤال دلالة الحيرة والشك عندما يتخذه الشاعر إيليا أبو ماضى دالاً مهيمناً فى قصيدته (الطلاسم) ، وإن كان السؤال فى هذه القصيدة يتأرجح بين بعده الحقيقى الذى يشير إلى حيرة يعانيها الشاعر ، وبعده غير الحقيقى عندما يسأل الشاعر من لا يجيب أو ما لا سبيل إلى إجابته ، فهو ينطق بحقيقة عدم المعرفة فى تعقيبه المتكرر فى مقاطع القصيدة جميعها :

جئتُ لا أعرفُ من أيــنَ ولكنى أتيت
ولقد أبصرتُ قُدّامــى طريقاً فمشيـت
وسأبْقَى سائراً إن شئتُ هذا أم أبيت
كيف جئتُ ؟ كيف أبصــرتُ طريقى
لست أدرى (١١٨)

فدلالة الحيرة هنا واضحة تؤرق الشاعر وتدفعه إلى ذلك السؤال دفعاً ، لتأتى الجملة التعقيبية (لست أدرى) اصطداماً بقسوة الواقع ، واستمراراً ـ فى الوقت نفسه ـ لتوقد السؤال فى ذات الشاعر ، ومن ثم انبرى هائماً فى مظاهر الكون المختلفة يسائلها دون جدوى :

قد سألتُ البحرَ يوماً : هل أنا يا بحرُ منكا

أصحيـــحٌ ما رواه بعضُهمْ عنّى وعنكـــا
أم تُرى ما زعموا زوراً وبهتاناً وإفكـــا
ضحكت أمواجـه منى وقالت :
لست أدرى [١١٩]

وبذلك يأخذ السؤال فى هذه القصيدة ـ بوصفه سمة أسلوبية سائدة ـ دلالة مغايرة تؤكد على أنه ليس كل وجود للسؤال فى نص يستوى مع وجوده المماثل فى نص آخر ، وبالتالى فإن ما يصلح أن يقال فى معالجة دلالات هذا الوجود فى نص لا يصلح ـ فى الغالب ـ لمعالجة نص آخر ، وهذا ـ من ناحية أخرى ـ يؤكد على استعصاء تركيب السؤال على الحصر التقنينى الذى يزعم لنفسه القدرة على الإحاطة بدلالات التركيب .

وتمعن دلالة السؤال فى المغايرة والتجاوز للمنطلقات السابقة جميعها فى السؤال الحداثى ، لأن السؤال هنا يمثل وجوداً كاملاً من القلق والرفض ، قد نغمطه قدره إذا قلنا إنه يمثل منهجاً فى التفكير ، إذ لا يستسلم الشاعر الحداثى للمستقر والعرفى والسائد ليظل "صانع أسئلة ، يملأ الطرقات بهواجسه ، يضع اللغة العاطفية جنب الجدار ، ويرتكب فعلاً فاضحاً فى الطريق العام ، وينكفىء على قصيدته التى تضيق به فيلوذ بالمحاءة المجاز ، ويعاود السعى فى هذه المدينة بعجلات الرمز والتمثيل والتعريض والكناية ، مراوغاً كالقناع لاذعاً كالسخرية ، ويعرف هذا الشاعر أنه ليس حكيماً أو قديساً " [١٢٠] .

إن الشاعر الحداثى ـ فى تجربته التمردية الرافضة ـ يسعى إلى التوثب الذى يكاد ينفصل فيه عن الواقع بكافة ملابساته ومعطياته ، ويتخذ السؤال متكأً لولوج عوالم مغايرة لكل مستقر ، إنه باحث " عن آفاق واعدة يقرع أبوابها السؤال الذى يلد السؤال ، وإذا كانت المعرفة الجديدة تومىء إلى صانع الأسئلة الذى يسعى إلى تعرف نفسه وتجديد أدوات معرفته بنفسه والعالم من حوله ، فإن هذه المعرفة تومىء إلى ما يحدث فى الواقع ، حيث الضرورة التى تستفز الوعى ، والتخلف الذى يثير السؤال " (السابق نفسه) ، ومن النماذج الشعرية التى يتخذ السؤال فيها سمة أسلوبية سائدة ديوان الشاعر محمد عفيفى مطر (والنهر يلبس الأقنعة) ، وتستوقفنا بنية السؤال فى الوشم الثالث (وشم النهر على خرائط الجسد) ، الذى يستهله بقوله :

هى الشمسُ ..
هل كانت الأرضُ رمّانةً تَتَخلّقُ فيها أجنّتُها الخُضرُ ،
هل كان ما فى عروقى غَمَامة
تفتقها الريحُ ، تَجْدِلُها موسماً يتفتح فى سُرّة الأرض ،
تنسجها حمرةٌ تتكثف

تنسجها رَحِماً ومشيمة ؟ !

هل الأرض رمانةُ جسدى جذرُها الشبكيُّ ،

هل الشمس كانت رصاصا يُثَقِّبُ أفرعَها (جسدى)

مانحاً جسدى شكله بالفراغات والكتل

المتسحمةِ فى قزح الدمع

والدمعُ قوسُ الأفق ؟ !

ينعطق الشاعر بالسؤال من أرضيته بعلاقتها المستقرة بين عناصرها ، فيهون فى أفق المجاز ليجعل منه بنية لا تنفصل عن الواقع لتعود إليه ولكنها تنفصل لتظل هكذا منعطقة من أرضيتها ، وكأن النص فى تحليقه المتجاوز هذا يدخل فى منطقة لا تتمكن منها قدرة الجاذبية للمواضعات المستقرة على اللحاق بعناصره الجزئية ، ومن ثم كان الوقوف على إنتاج الدلالة فى هذا النص متطلباً لحالة من التهيؤ الموازى عند المتلقى ، ليتحقق له به انعتاق مواز فلا يستدير بعنقه عند كل عنصر مجازى فى تراكيب الأسئلة إلى الأرض (الواقع والسائد من العلاقات بين الأشياء) محاولاً بذلك إرجاع كل عنصر إلى منطلقته الأرضية المستقرة .

إن السؤال هنا ببنيته المجازية سلسلة لا تنتهى من تخلق الدلالات ، يأخذ بعضها برقاب بعض لتعود إلى الواقع رؤية كلية تصبغ الأشياء بصبغتها . ولذلك يتجاوز الشاعر بالسؤال تلك الأنفاس المتقطعة المتمثلة فى الأسئلة المتلاحقة إلى السؤال الممتد المكتنز للعديد من الدلالات التى لا تنفصل عن عالمها الخاص الموازى للعالم الأرضى :

يا ساعة الرمل ..

... ...

وهل أنتِ منذورةٌ للتخلُّقِ أرغفةً ووجوها وأحصنةً ودما

تتخاصر فيه العدواتُ والخوفُ والقهرُ ،

يرقص فى شهوة العنف ، يكشف ليل الغرائز

والشهواتِ الصريحةِ ،

يلبس كنزَ هواجسِه جسداً ويمد يدَ الخلق بين

الرماد ويخطو خطى الشكل بين هيولى القيامة أم أنتِ

يا ساعة الرمل كراسةُ للمواقيت .. فى كل سطرِ

تصاريفُ أرضٍ يُغَمِّسُها البحرُ بالملح يأكلها

لقمةً لقمةً ثم يكتب :

" هذا شتاءُ المطر

أتى كرغيف الطحالب .. هل يغسل الماءُ أطرافُه

أم يجيء دماً من فساد العناصر والوقتِ ،

هل يغسل الماءُ ما خَلّفَتْه اليدُ البائدةْ

وهذا ربيعُ المواقيت أم موعدُ للشجر

يفتق من قشرة الوقت أكمامَهُ الهامدة !! "(١١٩)

فالسؤال يمتد هنا ليشكل رؤية كاملة لأحد المشاهد العديدة التى استنطق الشاعر بها (غيلان الدمشقى ، وهو يجدد شهادته بين النسوم الألفى والثورة المغدورة والموت الملغوم) تلك الرؤية التى يملؤها التوتر واضطراب رؤية الأشياء والرفض الضمنى الذى يستشرى فى أوصال السؤال .

لعل فى هذه النماذج المتفاوتة زماناً وكيفاً ما يكشف عن طاقات السؤال الإبداعية التى تحتاج إلى وقفات ـ تحليلية فى الدراسات التطبيقية متسع لها ـ أكثر أناة وتدبر من ملاحظات البلاغة التقليدية المتعجلة ، وسنعرض فى السطور التالية نموذجاً لتحليل أحد النصوص التى جاء السؤال فيها سمة أسلوبية سائدة .

* * *

نموذج للتحليل
الطاقة الإقناعية للسؤال
فى قصيدة أقوال جديدة عن حرب البسوس
لأمل دنقل

لانستطيع أن نُنَحّى معرفتنا التاريخية عن جذور النص البعيدة الضاربة فى أعماق تاريخ العرب فى العصر الجاهلى ، ولنقف من هذه الجذور على لحظة النهاية التى تقمصها الشاعر مختزلاً أقوال " كليب " ووصاياه فى هذا النهى : " لاتصالح " ، فجعله فاتحة " الوصايا العشر " التى تنحصر – فى جوهرها - فى وصية واحدة لاتتجاوز هذا النهى : " لاتصالح " ، كما أننا لا نستطيع – فى الوقت نفسه – تنحية معرفتنا التاريخية القريبة عن الموقف السياسى المتمثل فى معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل ، بوصفه دافعاً لهذا التوظيف الفنى للحدث القديم .

يتشكل النص فى تراكيب مختلفة جاءت بمثابة الروافد التى تصب فى مجرى واحد يتمثل فى الدفع إلى عدم التصالح ، ويشكل السؤال سمة أسلوبية مهيمنة فى البعد الإقناعى بالهدف المكثف فى النهى الذى استهل به الشاعر النص ، يبدو ذلك لأول وهلة فى مستهل النص ، إذ يبدأ الشاعر طرح الهدف (النهى) بشكل مباشر ، ثم يحيل المخاطَب إلى ذاته بطرح التساؤلات التى تحاصر المخاطَب فلا يملك إلا الإقرار بها معقباً بالخبر الذى يؤكد على الحقيقة التى طرحها عبر الأسئلة :

لا تُصالِحْ !
.. ولو منحوك الذهب
أتُرى حين أفقأُ عينيك ،
ثم أُثبّتُ جوهرتين مكانهما ..
هل تَرى .. ؟
هى أشياء لاتُشترى .. :

يستأنف الشاعر سؤاله بالهمزة التى يتلوها الفعل " ترى " الدال على طرح الأمر للمناقشة ، واستثارة فكر المخاطب بطرح الفكرة الداعية للتأمل دونما حاجة إلى جواب ، ولذلك فهو يكرر السؤال الذى ظل مفتوحاً ولم ينهه الشاعر " أترى حين أفقأ عينيك ثم أثبت جوهرتين مكانهما " فليس فى هذا التركيب مضمون سؤال دال على غرض أو آخر ، وإنما هو دعوة للتأمل الذى يحمل على الرفض إقراراً بإنكار حدوث الرؤية لو أن ما طرحه التساؤل الأول كان محتمل الوقوع .

يقطع الشاعر بالتساؤل احتمال إمكان البدائل فى مثل هذه الأشياء التى لا تشترى ولا تستبدل ، والسؤال هنا يمهد للغاية الإقناعية بطرح هذا القياس الذى يحيل إليه موقفه بوصفه مستبطناً ما

أصاب المحكى عنه (كليب) .

ثم يسير النص نحو محاولات تأثيرية ياحالة المخاطَب إلى ماضٍ جمع بينه وبين المخاطِب ، لايلبث الشاعر أن يتحول بها إلى تراكيب السؤال التى تجمع بين محاولة التأثير والإقناع ، وتشكل الجمل الاعتراضية فى تركيب السؤال هذا البعد التأثيرى العاطفى الذى يحمل المخاطَب على الإقتناع بالرفض .

هل يصيرُ دمى ـ بين عينيك ـ ماءً ؟
أتنسى ردائى المُلَطَّخ ..
تلبسُ ـ فوق دمائى ـ ثياباً مطرّزة بالقَصَب ؟

فالاعتراض بقوله : " بين عينيك " وقوله : " فوق ردائى " يحمّل السؤال بشحنة عاطفية انفعالية ، ففرق كبير بين أن نقرأ السؤالين بدون الاعتراض ، وهذا يؤكد على أهمية السياق ـ من ناحية ـ والبنية اللغوية للسؤال – من ناحية أخرى – فى إثراء الدلالة وتكثيفها ، فالجملتان الاعتراضيتان تؤكدان على تلك المشاعر الحميمة بين الأخوين التى طرحتها الجمل الخبرية السابقة على السؤال ، ببنيتها اللافتة التى لاتخلو من غرابة ، إذ يطرح الشاعر هذا الخبر بقوله : " ذكريات الطفولة بين أخيك وبينك " ثم تمتد عدة جمل خبرية أخرى تحيل إلى ماضٍ مكدس بالذكريات التى تصل حميمياتها إلى حد التوحد بين الأخوين ، مما يستدعى وفاءً لهذه الملابسات العديدة من التقارب الشديد بين الأخوين ، وغرابة الخبر هنا فى تعليق المسند (خبر المبتدأ : ذكريات) إلى حد لاتجد إبانة عن هذا المسند فى غيرالسؤال ، لتكون الدلالة : " ذكريات الطفولة بين أخيك وبينك و... و... و... تستوجب منك ألا يصير دمى بين عينيك ماءً ، وألا تنسى ردائى الملطخ بالدماء ، وألا تلبس فوق دمائى ثياباً مطرزة بالقصب " ، وبذلك تدخل تلك الدلالات العديدة المتشاعبة – تمهيداً للسؤال– فى جوهر بنيته الدلالية .

ثم تجد الاعتراض بقوله : [بين عينيك] بين اسم يصير وخبرها فى السؤال الأول ، ثم تجد الاعتراض بقوله : [فوق دمائى] بين فاعل تلبس ومفعولها فى السؤال الثانى ، فقد قرن الاعتراض هنا بين الأخوين ، امتداداً للتراكيب النحوية السابقة وما بها من التحام وتوحد بينهما ، فبينما جاء ذكر المتحدث بقوله : " دمى " باضافة ياء المتكلم إلى (الدم) متبوعاً بذكر المخاطَب باضافة كاف الخطاب إلى (العين) لتنشأ علاقة ضدية فحواها : أنه إن أمكن أن يصير دمى ماءً فإنه بين عينيك أنت بالتحديد لاينبغى أن يصير كذلك ، جاء ذكر المخاطَب (فاعل تلبس) فى السؤال الثانى ، متبوعاً بذكر المتحدث باضافة ياء المتكلم إلى الدم (فوق دمائى) لينشأ التقابل بين الموقفين اللذين لايقرهما ذلك التوحد المشار إليه فى الجمل الخبرية السابقة ، فالاقتران بين الأبوين فى الأخبار السابقة جاء اقتران توافق بينهما ، أما فى السؤال فالعلاقة ضدية ، نعم أنها ليست قائمة ولكنها محتملة ممكنة ، ومن هنا كان السؤال رفضاً لانقطاع التوافق والالتحام الذى جمع بينهما فى حميمية ، لأن التضاد يبرز أقصى دلالات التقزز من صورته هو [ردائى الملطخ] فى مقابل أبهى دلالات الترف [ثياباً مطرزة بالذهب] ، بالإضافة إلى الثنائية الضدية الدالة على

الهوان فى جعله الدم ماءً .

وبذلك نجد لبنية السؤال الحضور الأكبر فى انتاج الدلالة ، ونجد مقولة عبد القاهر عن التقديم والتأخير متجسدة فى هذه البنية : ... ولاتزال ترى شعراً يروقك مسمعه ويلطف لديك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبباً أن راقك ولطف عندك ، أن قدم فيه شيئاً ، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان " [١٢٢] .

ثم تأتى بعد السؤال الجمل التعقيبية وكأن المخاطب قد بلغ مبلغه من التأثير والإقناع ليجد أمامه تلك الحقائق المركزة الملتبسة بالتأكيد على النهى :

إنها الحـربُ !
قد تُثْقِل القلب ..
لكن خلفك عار العرب .
لاتصالح ..
ولاتتوخَّ الهَرَبْ !

ثم يأتى السؤال فى الوصية الثانية لينقض المفاهيم المستقرة ، استهل الشاعر حديثه بالتنكر لها واستهجانها ، ولا يخفى أن هذه المفاهيم تحقق بعدين : العدل ، والموقف النفسى والاجتماعى إثر حدوث القتل ، فمن قتل يقتل ، ومتى تحقق ذلك تحقق العدل ، وانزاحت عن النفس تبعة الموقف النفسى والاجتماعى ، ولكن الشاعر يعلن الرفض حتى لهذه المبادئ :

لاتصالحْ على الدم .. حتى بدم !
لاتصالح ! ولو قيل رأسٌ برأس ،

متخذاً من السؤال بنية إقناعية تنتهك تلك المبادئ التى أقرها الدين والعرف والقبيلة ، فلا يفتر عن ملاحقة المخاطب ومحاصرة عقله الذى قد يفكر فى المصالحة ؛ ليذكى نار الثأر فى قلبه وعقله لتأجج ثورة غاضبة لاتعبأ بشئ من عرف أو دين ، إذ يحمل المخاطب على ذلك حملاً حين يوجه إليه الأسئلة :-

أكُلُّ الرؤوسِ سواء ؟!
أقلبُ الغريبِ كقلبِ أخيك ؟!
أعيناه عينا أخيك ؟!
وهل تتساوى يدٌ .. سيفُها كان لكْ
بيد سيفها أتكلك ؟

يُحمّل الشاعر السؤال بعلل الرفض ، إذ يقدم حيثياته فى بنية السؤال التى لايملك المخاطب حيالها سوى الإقرار والإذعان ، ليكون السؤال بذلك حلقة ثانية بوصفه حيثية الرفض الذى حملته بنية النهى فى السطرين الأول والثانى ، وحلقة أولى ، بوصفه مقدمة أُقِرَّ المخاطَب بها وصولاً للنتيجة المتمثلة

فى الأمر :

واغرس السيفَ فى جبهةِ الصحراءِ ..
إلى أن يُجيبَ العدمْ .

ولن يجيب ، ومن ثم فلا وجود للتصالح على الإطلاق ، تلك هى النتيجة التى أفضت إليها المقدمات المنطقية فى بنية السؤال التى أسهمت فيها المقابلة فى الجمع بين التأثير النفسى والإقناع العقلى ، فقد جاء السؤال الأول ينتهك المساواه بشكل مطلق " أكل الرؤوس سواء " ، أما بقية الأسئلة فتضع المخاطب بين ضدين لايستويان أبداً " قلب الغريب وقلب أخيه ـ عينا الغريب وعينا أخيه " فى السؤالين الثانى والثالث ، ثم يضيف البعد النفعى إلى ذلك ليبلغ التأثير والإقناع مبلغهما فى نفس المخاطب ، إذ يضعه أمام مقارنة بين يد أخيه التى كان له سيفها ، ويد الغريب التى أكله سيفها .

ويلفت السؤال فى الوصية الثالثة إلى البعد التأثيرى العاطفى بعد مقدمات طالت عن ذكر ابنة القتيل وما حرمته من حرمانها أباها ، فيضع المخاطب أمام سؤال مثير لهذه العاطفة عن " بنت أخيه . اليمامة ... وهى زهرة تتسربل ـ فى سنوات الصبا ـ بثياب الحداد " .

فما ذنبُ تلك اليمامة
لترى العُشّ محترقاً .. فجأة ،
وهى تجلسُ فوق الرماد ؟!

وتتجه بنية السؤال فى الوصية الرابعة نحو التركيز على تفنيد بعد آخر للتصالح الذى أسهم التشبيه الضمنى فى إثراء دلالته ، ويتجه هذا البعد نحو مقاومة المغريات ، ويتحول الشاعر فى هذه الأسئلة إلى السؤال عن الحال فيستخدم " كيف " نافياً إمكان حدوث ذلك بأى حال ، واضعاً المشبه فى صورة بارزة منفرة تنعكس على المشبه ، وهى بتنفيرها تبعث على الرفض ، وتقاوم أدنى رغبة قد تساور المخاطب فى التصالح ، إذ جعل الشاعر التتويج بتاج الإمارة إنما هو خطوٌ على جثة أخيه الذى أمعن الشاعر فى التقريب بينهما بقوله : " ابن أبيك " بدلاً من أخيك ، ليسلب الشاعر بذلك لحظة التتويج المرتقبة المحتملة الوقوع بهجتها ، فيفسدها بوضع الحقائق التى تطفئ بريقها فى بؤرة شعور المخاطَب :

لاتصالح
ولو تَوَّجُوك بتاج الإمارة .
كيف تخطو على جثّة ابن أبيك .. ؟
وكيف تصيرُ المليكَ ..
على أوْجُه البهجة المُستعارة ؟
كيف تنظر فى يد من صافحوك ..
فلا تبصرُ الدمَ ..
فى كل كف ؟

فيجعل قبول الإمارة خطواً على جثة أخيه ، ويجعل المُلك إنما هو ملك على أوجه زائفة البهجة ، ويجعل الدم بصورته المثيرة المقززة الصورة المرئية المهيمنة على لحظة البهجة التى تجتمع هذه العناصر على سلبها بريقها وبهجتها.

ويأتى السؤال فى الوصية الخامسة ليركز على استثارة نوازع الرجولة والنخوة فى نفس المخاطب ، إذ يلاحقه بأسئلة تسلب السلام معناه وتجعله عاراً وخنوعاً ، ويسلب ما يمكن أن يقال عن السلام من كلمات فيقيم حاجز يقف حائلاً دون تأثيرها الذى قد يؤدى إلى القبول ، فيبنى الشاعر الأسئلة على تفريغ هذه الكلمات من مضمونها التأثيرى :-

لاتصالح ،
ولوقيل ماقيل من كلمات السلام .
كيف تستنشقُ الرئتان النسيمَ المدنس ؟
كيف تنظر فى عينى امْرأةٍ .
أنت تعرفُ أنك لاتستطيعُ حمايتها ؟
كيف تُصبحُ فارسَهَا فى الغرام ؟
كيف ترجو غداً .. لوليدٍ ينام
- كيف تحلمُ أو تتغنّى بمستقبلٍ لغلام
وهو يكبرُ - بين يديك - بقلبٍ منكّس ؟ (١٢٣)

وتتراوح بنية السؤال هنا بين الحقيقة والتشبيه ، إذ يستهلها بالتشبيه الضمنى الذى يأتى السؤال فيه مطلقاً " كيف تستنشق الرئتان النسيم المدنس " فالرئتان بشكل عام لاتقبلان استنشاق النسيم المدنس ، وما النسيم هنا سوى ذلك السلام الزائف الذى لايرجوه المتحدث ، ويدفع إلى رفضه دفعاً ، ولعل بعداً ضدياً يبرز من خلال النعت والمنعوت (النسيم المدنس) فالنسيم وما يستدعيه من دلالات الرقة والعذوبة والانتشاء والحيوية ينقضه الوصف بالتدنيس ، مما يجعل ظاهر الأمر مناقضاً لباطنه ، وذلك ما يبرز رؤية الشاعر للسلام وكلماته البراقة ، فهى فى حقيقتها وجوهرها وباطنها ذل وخنوع.

أما السؤال الثانى فيضع المخاطب فى موضع المواجهة مع ذاته بزيادة الشاعر فى بنية السؤال قوله " أنت تعرف أنك " فالمعنى التوصيلى المباشر قد كان يمكن أن يُكتفى فيه بقوله : " كيف تنظر فى عينى امرأة لاتستطيع حمايتها " ، تلك الزيادة التى تقتضى أن المخاطب يعلم ذلك فى سريرة نفسه مهما حاول إخفاءه عن الآخرين ، وأن المخاطِب يعلم منه ذلك ، وبذلك يفضح الشعور الداخلى الذى قد تنطوى عليه نفسه الخانعة لو رضيت بالتصالح ، وما تلك الإبانة عما يمكن أن تنطوى عليه نفس المخاطَب سوى نوع من المحاصرة والمصادرة على أى محاولة لتبرير التصالح أو الإقناع به ، وضرب من الملاحقة والمطاردة العقلية تخمد العناصر المختلفة التى قد تتكئ عليها عملية الإقناع بالتصالح ، وهى بالتالى تتحول طاقة إقناعية للرفض ثأراً وانتقاماً.

الـهوامـش

١ ـ راجع سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر) : الكتاب ، تحقيق عبد الســـلام هارون ، ط ٢ القاهرة ١٩٨٢م ـ حـ ١ ص ١١٩/١٣٤/١٣٥

والفراء (أبو زكريا يحيى بن زياد) : معاني القرآن ، تحقيق د. عبد الفتاح شلبي ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة (بدون تاريخ) حـ ١ ص ٣٣٥ ، حـ ٢ ص ٨٤/٨٥/٣٥٤

٢ ـ راجع على سبيل المثال :سيبويه : الكتاب حـ ١ ص ٩٨

الفراء : معاني القرآن حـ ١ ص ٢٣ ، المبرد : المقتضب حـ ١ ص ٤١

٣ ـ لسان العرب ، مادة فهم

٤ ـ لسان العرب ، مادة خبر

٥ ـ ابن فارس : الصاحبي ، تحقيق السيد أحمد صقر ، القاهرة ١٩٧٧ ص ١٨١ ، والاختلاف بين الاستفهام والاستخبار ليس من آراء ابن فارس ، وقد نسب إليه هذا القول د. محمود توفيق بقوله : " يذهب ابن فارس " الاستفهام القرآني ص ٤

٦ ـ أبو العباس ثعلب : قواعد الشعر ، تحقيق د. رمضان عبد التواب ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٩٩٥ م ص ٢٥ إذ قسم قواعد الشعر إلى أربع : أمر ونهي وخبر واستخبار

وابن قتيبة أدب الكاتب : ص ٤ إذ قسم الكلام على أربعة أقسام : أمر وخبر واستخبار ورغبة

٧ ـ ابن فارس : الصاحبي ص ١٨١

٨ ـ د. أحمد مطلوب : معجم المصطلحات البلاغية وتطورها بغداد ١٩٨٣ م : جـ ١ ص ١٨١

٩ ـ السكاكي (أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد) : مفتاح العلوم ، تحقيق نعيم زرزور ـ الطبعة الثانية بيروت ١٩٨٧ م ص ٣٠٣

١٠ ـ القزويني : الإيضاح ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ـ الطبعة الثالثة ـ بيروت ١٩٩٣حـ ٢ ص ٥٥

١١ ـ راجع على سبيل المثال : مختصر سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح ، ابن يعقوب المغربي : مواهبالفتاح في شرح تلخيص المفتاح ، بهاء الدين السبكي : عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح بيروت بدون تاريخ

١٢ ـ ذهب إلى هذا التحديد ابن يعقوب المغربي في مواهب الفتاح وحدده د. محمد عبد المنعم خفاجي في شرح الإيضاح للقزويني ، ود. عبدالعزيز عتيق : علم المعاني ص ٦٩ ط بيروت ١٩٧٤

١٣ ـ أبو نصر الفارابي : كتاب الحروف الطبعة الثانية بدون تاريخ ص ١٦٤

١٤ ـ المرجع السابق نفسه والصحيفة نفسها.

١٥ ـ د. محمد أبو موسى : دلالات التراكيب الطبعة الثانية . القاهرة ١٩٧٨ ص ٢١٥

١٦ ـ د. محمود توفيق محمد سعد : الاستفهام القرآني : دقائق ورقائق . دراسة تنظيرية تأويلية. دراسة في حولية كلية اللغة العربية جامعة الأزهر . فرع المنوفيه سنة ١٩٨٥. ص ٤ ، ٥

١٧ـ المرجع السابق نفسه ص ٦

١٨ ـ بهاء الدين السبكى : عروس الأفراح حـ ٢ ص ٣٠٧
١٩ ـ د. محمود توفيق : المرجع السابق ص ٧
٢٠ ـ سعد الدين التفتازانى : المطول ص ٢٣٥
٢١ ـ راجع د. محمود توفيق : المرجع السابق ص ٨ ، وحاشية السيد على المطول للتفتازانى ص ٢٣٥
٢٢ ـ د. محمد أبو موسى : البلاغة القرآنية ص ٣٠١
٢٣ ـ د. محمد أبو موسى : دلالات التراكيب. الطبعة الثانية القاهرة ٨٧ ص ٢١٦
٢٤ ـ د. محمد أبو موسى : المرجع السابق نفسه ص ٢٠٣ ، ٢٠٤
٢٥ ـ المرجع السابق نفسه ص ٢١٥
٢٦ ـ أبو العباس ثعلب : قواعد الشعر تحقيق د. رمضان عبد التواب ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة (١٩٩٥م ـ ص٣١)
٢٧ ـ المرجع السابق نفسه ص ٣٣
٢٨ ـ المرجع السابق نفسه ص ٣٥
٢٩ ـ المرجع السابق نفسه ص ٣٥
٣٠ ـ سورة البقرة آيه ٣٠
٣١ ـ الزركشى (بدر الدين محمد بن عبد الله) : البرهان فى علوم القرآن ، محمد أبو الفضل إبراهيم ـ الطبعة الثانية بيروت ١٩٧٢ ص ١١٠
٣٢ ـ المرجع السابق نفسه ص ١١٤
٣٣ ـ الآيات فى سورة الكهف من آية ٦٦ إلى آية ٧٤
٣٤ ـ سورة المؤمنون آية ١١٢
٣٥ ـ سورة المؤمنون آية ١١٣/١١٤
٣٦ ـ السكاكى : مفتاح العلوم ص ٣١٣ والبيت فى ديوان الفرزدق
٣٧ ـ د. عبدالجواد محمد طبق : دراسات بلاغية فى علمى المعانى والبديع الطبعة الأولى القاهرة ١٩٩٦ ص ١٤
٣٨ ـ د. عبدالجواد محمد طبق : المرجع السابق ص ١٤
٣٩ ـ محمد بن على بن محمد الجرجانى : الإشارات والتنبيهات ، القاهرة ١٩٩٧ ، ص ٩٥
٤٠ ـ ديوان جرير : تحقيق د. نعمان محمد أمين طه ، الطبعة الثالثة ، جـ ١ ، ص ٨٥
٤١ ـ السابق نفسه ص ٨٩
٤٢ ـ ابن رشيق : العمدة ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ـ الطبعة الخامسة ـ بيروت ١٩٨١ جـ ١ ص ١٢٤
٤٣ ـ د. عبد الجواد محمد طبق : دراسات بلاغية ص ١٤
٤٤ ـ على القاسمى : مقدمة فى علم المصطلح بغداد ١٩٨٥ ، ص ٦٨
٤٥ ـ أبو هلال العسكرى : الفروق فى اللغة ـ بيروت ١٩٧٣ . ص ٢٨
٤٦ ـ أبو هلال العسكرى : كتاب الصناعين : تحقيق : على محمد البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم . الكويت بدون تاريخ ص ٤٥٠
٤٧ ـ لسان العرب مادة سأل
٤٨ ـ أبو البقاء : الكليات ـ الطبعة الثانية ـ بيروت ١٩٩٣ ـ ص ٥٠١

٤٩ ـ الإسراء : ٨٥ ٥٠ ـ الممتحنه : ١٠
٥١ ـ أبو البقاء : الكليات ص ٥٠١
٥٢ ـ مختار الصحاح . مادة سأل
٥٣ ـ ابن الأنبارى : شرح القصائد السبع الطوال ، تحقيق عبد السلام هارون ـ الطبعة الخامسة دار المعارف القاهرة ص ٥٢٨
٥٤ ـ صحيح مسلم ، عن أبى هريرة
٥٥ ـ أبو نصر الفارابى : كتاب الحروف ص ١٧٣ / ١٧٤
٥٦ ـ المرجع السابق نفسه ص ٢٠٧
٥٧ ـ المرجع السابق نفسه ص ٢١١ ، ص ٢٢٥
٥٨ ـ هنريش بليث : البلاغة والأسلوبية ، ترجمة د. محمد العمرى . طبعة أولى ، الدار البيضاء ١٩٨٩ ، ص ٣٢
٥٩ – بيرجيرو الأسلوب والأسلوبية ترجمة د. منذر عياشى طبعة بيروت ـ بدون تاريخ ص ٣٥
٦٠– د. سعد مصلوح : نحو أجرومية للنص الشعرى دراسة فى قصيدة جاهلية ـ فصول ـ مجلد ١٠ عدد ١ ، ٢ يوليو ـ أغسطس ١٩٩١
٦١ – د. رجاء عيد : فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور . طبعة منشأة المعارف ـ اسكندرية ص ١٢٣
٦٢ – سورة البقرة آيه ٣٠ ٦٣ ـ الإسراء : آية ٦١
٦٤ ـ سورة طه : آية ٦٥ ـ سورة البقرة : آية ٢٣٢
٦٦ ـ (السكاكى : مفتاح العلوم الطابعة الثانية بيروت ١٩٨٧ ـ ص ٣١٣)
٦٧ ـ راجع القذوينى : الإيضاح تحقيق محمد عبد المنعم خفاجى الجزء الثالث ص ٦٧ ط ٣ بيروت ١٩٩٣ ، وراجع ايضاً شروح التلخيص ـ بيروت بدون تاريخ الجزء الثانى ص ٢٨٨
٦٨ ـ الإيضاح : د. محمد عبد المنعم خفاجى بهامش ص ٦٧ الجزء الثالث
٦٩ ـ الزركشى : البرهان فى علوم القرآن ، والآية الأولى من سورة الشعراء . آية ٧٦ ، والآية الثانية من سورة الفجر ، وقد جاء رأى الكندى (وهو ابو اليمن زيد بن الحسن فى كتاب الإتقان للسيوطى حـ ٢ص٨٩)
٧٠ ـ عبد القاهر الجرجانى : دلائل الأعجاز ص ١١٤
والآية : سورة الأنبياء آية ٦٢.
٧١ ـ سعد الدين التفتازانى : المطول ص ٢٣٩ .
٧٢ ـ د. محمد محمد أبو موسى : دلالات التراكيب ص ٢٤٠
٧٣ – د. محمد العبد : اللغة والإبداع الأدبى ط ١ القاهرة ١٩٨٩ ص ٧٠
٧٤ – د. صلاح فضل : أشكال التخيل طبعة القاهرة ١٩٩٦ ص ١٣٣
٧٥ – ديوان أحمد عبد المعطى حجازى الأعمال الكاملة ، دار سعاد الصباح ، القاهرة ١٩٩٣ ص ٥١٩
٧٦ – هايدى تويل : المحارب ضد الحكيم (العالم الدلالى الفردى والمرسلون الكوزمولوجيون فى كائنات مملكة الليل) دراسة فى مجلة فصول ـ المجلد الخامس عشر ـ العدد الثالث ـ خريف ١٩٩٦ ـ ص ٢٩٦
٧٧ – هنريش بليث : المرجع السابق ص ٣٣
٧٨ – السابق نفسه ص ٣٤

٧٩ – د. صلاح فضل : علم الأسلوب ـ ط ٢ ـ القاهرة ١٩٨٥ ـ ص ١٤٧

٨٠ – هنريش بليث : المرجع السابق ص ٣٢

٨١ – بير جيرو : المرجع السابق ص ٦٣

٨٢ – (أبو هلال العسكرى : كتاب الصناعتين ص ٤٤٥)

٨٣ ـ (العنكبوت آية ٦٨)

٨٤ ـ (الكهف " آية ٧٢)

٨٥ ـ (الكهف : آية ٦٧)

٨٦ ـ (الكهف آيه ٧٠)

٨٧ ـ عبد القاهر الجرجانى : دلائل الأعجاز ص . ١١٩

٨٨ ـ انظر د. محمد أبو موسى : دلالات التراكيب ص ٢٣١ ، ٢٤٣

ود. الجواد طبق " دراسات بلاغية ص ٢٣ ، ٢٤)

٨٩ – د. أحمد ماهر البقرى : أساليب النفى فى القرآن . القاهرة ١٩٨٠ ، ص ٢٨٧)

٩٠ ـ البقرة آية ١١٤

٩١ ـ النساء آية ١٢٢

٩٢ ـ فصلت آية ٣٣

٩٣ ـ الشعراء آية ١٧٥ /١٦٦

٩٤ ـ د. أحمد ماهر البقرى : أساليب النفى فى القرآن . ص ٢٨٧

٩٥ ـ د. أحمد البقرى : أساليب النفى فى القرآن . ص ٢٧٨

٩٦ ـ سورة البقرة . آية ٤٤

٩٧ ـ د. محمد أحمد أبوالفرج : الاستفهام فى اللغة العربية ـ رسالة ماجستير مخطوطة . بجامعة الإسكندرية ورقة ٣٧

٩٨ ـ الرحمن آية ٦٠

٩٩ ـ الشعراء ١٣٦ (راجع د. محمد أحمد أبوالفرج : الاستفهام فى اللغة العربية ورقة ٣٧ وما بعدها)

(د. أحمد ماهر البقرى : أساليب النفى فى القرآن ص ٣٩٨ ـ ٣٠١)

١٠٠ ـ ديوان أبى فراس الحمدانى ـ ط بيروت ١٩٨٦ ـ ص ٦٥

١٠١ ـ ديوان المتنبى بشرح العكبرى ـ جـ ٤ ـ ص

١٠٢ ـ المرجع السابق نفسه ـ جـ ١ ـ ص

١٠٣ ـ السابق نفسه ـ جـ ٤ ـ ص ١٤٥

١٠٤ ـ ديوان أمل دنقل ـ الأعمال الكاملة ـ ط مدبولى ـ القاهرة ص ٢٣٨

١٠٥ ـ السابق نفسه ص ٢٧١

١٠٦ ـ سورة يوسف : آية ٣٩

١٠٧ ـ الأنبياء آية ٦٣

١٠٨ ـ يوسف آية ٨٢

Neugarten, B. L. & Neugarten, D. A. (1986). Age in the aging society. *Daedalus, Journal of the American Academy of Arts and Sciences, 115* (1), 31-49.

Sechrest, L.; Fay, T.; Zaidi, H. & Flores, L. (1973). Attitudes toward mental disorder among college students in the United States, Pakistan and the Philippines. *Journal of Cross-Cultural Psychology, 4*, # 3.

١٠٩ ـ بيير جيرو : الأسلوب والأسلوبية ـ ص ٩٤

١١٠ ـ المرجع السابق نفسه والصحيفة

١١١ ـ د. صلاح فضل : علم الأسلوب ص ٢١٧

١١٢ ـ بيير جيرو : المرجع السابق نفسه ص ٩٢

١١٣ ـ راجع هنريش بليث : المرجع السابق نفسه ص ٣٣

١١٤ ـ المرجع السابق نفسه والصحيفة

١١٥ ـ سورة الملك آية

١١٦ ـ ديوان ابن الفارض ، تحقيق مهدى محمد ناصر الدين (بيروت ١٩٩٠) ص ١٣٦ وما بعدها

١١٧ ـ السابق نفسه ص ١٣٦

١١٨ ـ ديوان إيليا أبى ماضى ـ الأعمال الكاملة ـ بيروت (بدون تاريخ) ص ١٩١

١١٩ ـ السابق نفسه ص ١٩٣

١٢٠ ـ د. جابر عصفور : ملاحظات حول الحداثة ـ مجلة إبداع ـ فبراير ١٩٩٢

١٢١ ـ محمد عفيفى مطر : ديوان (والنهر يلبس الأقنعة) ص ٧١ وما بعدها

١٢٢ ـ عبد القاهر الجرجانى : دلائل الإعجاز ص ١٠٦

١٢٣ ـ ديوان أعل دنقل : ص ٢٧٦ إلى ٢٨٦

* * *